



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

www.

www.

www.

www.

Ghaemiyeh

.com

.org

.net

.ir

الحمد لله
الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا
أن هدانا الله

أبى المفضل

(توفيق)

(السيد محمد الطهر القاسبي الزمخداري)

مجموعت كتاب (سرورية)

(اشرف متنوعه في حياة الفخر)

(وجمعت منها في هذا الكتاب)

(الطبعة الأولى بمطبعه الفخر بنظر م. محمد الجاسر بمصر سنة 1374 هـ)

مطبعه الطبعه الفخرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خديجة سلام الله عليها أم المؤمنين

كاتب:

السيد عبد الحميد افندي الزهراوي

نشرت في الطباعة:

موسسة المنار

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
7	خديجة سلام الله عليها أم المؤمنين
7	هوية الكتاب
7	إشارة
9	مقدمة تمهيدية (أو) أهداء السيرة (إلى) (روح والدة المؤلف)
15	(مقدمة)
15	إشارة
16	العرب
31	الفصل الأول (مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة)
37	الفصل الثاني (بيونات قريش وخصائصها)
42	الفصل الثالث -ديانة أهل مكة عند البعثة
47	الفصل الرابع -مقام النساء في قوم خديجة)
56	الفصل الخامس -مقام خديجة، عند قومها
59	الفصل السادس -فضائل (خديجة) والفضائل عند قومها
69	الفصل السابع -جمال خديجة والجمال عند قومها
74	الفصل الثامن -ثراؤها والثراء عند قومها
85	الفصل التاسع -زواجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم
87	الفصل العاشر -محمد (عليه الصلاة والسلام) قبل نزوح خديجة
99	الفصل الحادى عشر - (الحب الشريف)
102	الفصل الثاني عشر -تفاؤل هذا وقته
104	الفصل الثالث عشر -الخواطر في قلب «خديجة»
108	الفصل الرابع عشر -الزواج
111	الفصل الخامس عشر -بيت خديجة بعد الزواج)

114	الفصل السادس عشر- (العمل الروحي)
128	الفصل السابع عشر- (بين روح وروح) أو (بدء الوحي)
134	الفصل الثامن عشر- (عظم المنة باتساع المنة)
136	الفصل التاسع عشر- (الأدلة العقلية)
138	الفصل العشرون- (شرح حكمة السيدة خديجة)
144	الفصل الحادي والعشرون- (الدليل النقلي)
152	الفصل الثاني والعشرون- (الايمان والآيات وخوارق العادات)
160	الفصل الثالث والعشرون- (اعلان الدعوة ، واحتمال الاذى ، والثبات)
164	-خلاصة الدعوة -
165	الفصل الرابع والعشرون- (بعد عشر سنين)
168	(فهرس سيرة السيدة خديجة)
175	تعريف مركز

خديجة سلام الله عليها أم المؤمنين

هوية الكتاب

خديجة أم المؤمنين

(تأليف)

(السيد عبد الحميد افندي الزهراوي)

مبعوث حماه (سورية)

«نشرت متفرقة في مجلة المنار»

«وجمعت منها في هذا الكتاب»

(حقوق الطبع محفوظة)

(الطبعة الأولى بمطبعة المنار بشارع درب الجاميز بمصر سنة 1328)

www.attaweel.com

ص: 1

إشارة

مقدمة تمهيدية (أو) أهداء السيرة (إلى) (روح والدة المؤلف)

ص: 3

(ذكر الله تعالى والثناء عليه والشكر له قبل كل شيء)

دخل هذه الدار عدد لا يحصى من بني آدم بمجموعهم عمرت القرى والامصار ، وتحركت أفلاك العلوم والاعمال ، وتعاقبت أسلاك الاجتماع والاحوال ، واذا فتحت كتب السير والتاريخ لا تجد ذكراً لعُشر من دخلها ولا لعُشر عُشرهم ولا للواحد في الالف ، ولا للواحد في ألف الالف منهم فماذا يعني المؤرخون بهذا القليل من بني آدم ويهملون الكثير منهم ؟

ليس بمجيب ما صنع المؤرخون فان الاكثرين من بني آدم منشا كلو السيرة ، متشابهو الحالة والغاية ، على ما بين سيرهم من التغير ، وبين أحوالهم من التفاوت ، وذلك أنّ حاصل أمرهم تعب وكد ومزاحمة وحيرات وحسرات في تحصيل ما اشتهاوا أو تعودوه من المطالب جل أو حقر ، فماذا هي أن يذكر المؤرخ من حكايات هؤلاء التي يمكن أن تكتب كلها هكذا : « جاءوا الى هذه الدنيا فاشتغلوا بأسباب معاشهم وعاشوا

خاضعين للغالب وذهبوا غير تاركين أثراً في هذه الدار إلا إن كان ولدًا على شاكلتهم» .

وأما أولئك الافراد القليلون الذين لهم بعد مماتهم وجود ظاهر بالآثار فإن في سيرهم للتاريخ ذخر آمن غرائب الاستعداد الإنساني، وبدائع مظاهره، وجلائل أثره، وامثلة التفاوت بين أفراده، والارتقاء والتكامل في مجموعته، بواسطة آحاد من جملته، بذلك يستمد التاريخ جدته كل يوم، ويأخذ المزيد لرونقه عند كل فرد وكل قوم .

وأولئك الافراد صنوف : فرسول مبشر، وحكيم مبصر، وكاتب مفكر، وشاعر مذكر، وفتح منير، ومخترع محير، وكاشف منور، وباحث مصور، واجتماعي محور، وشرعي مقرر، ونصاح مبرر، ولساني مفسر، ومفضل ميسر .

هؤلاء الصنوف أقطاب التاريخ على أخبارهم يدور، ومآثرهم مشارفه منها يستمد النور، ووراءهم في الذكر يأتي من اشتهروا بخلق من الاخلاق، ومن عرفوا في عشيرة بطيب الاعراق، ومن هنا يظهر لنا أن الشهرة ليست بشيء عند التاريخ اذا لم تؤيد بمآثر . ولولا هذا لتعب المؤرخون في سرد أسماء كثيرة لا يستطيعون أن يبيضوا وجوه دفاترهم بشيء من أعمال أصحابها ممن كانوا كباراً في العيون لأنهم أبناء أمجاد مثلاً وهم لم تجدهم هممة، ولم تؤثر عنهم منقبة، ويظهر لنا أيضاً أن إعراض التاريخ عن ذكر من لم تبهر مآثرهم هو احسن درس في الاخلاق ألقاها علينا المؤرخون عن عمد أو بالتصادف وذلك لأن النفوس إنما يترهبها بالباقيات الصالحات

تذكار اهلها وتمداحهم، وانما ينهئها عن الحول سرعة انطفاء الخاملين ، وطول اشراق الباقي ذكرهم في العالمين .

نلام ان من لهم الباقيات الصالحات التي يقون ويذكرون بها هم افعل الحداة بالنفوس وانهض بها الى المكرمات فحكاية احوالهم هي أفضل مأخذ الاخلاقيين الذين يجتهدون في أن يفهموا قارثيهم كيف يتكامل الانسان وكيف يصير من الاقطاب اقطاب التاريخ .

اللهمّ إني أستسقي جودك وإحسانك لأرواح المؤرخين الذين تركوا كنوزاً كثيرة لنفوسنا من سير الأقطاب من آبائنا، وأستغفرك عن زلة زلها أكثرهم من حيث لا يشعرون وهي إهمالهم كثيرا من سير الأقطاب من أمهاتنا،

لقد علمنا أنّ الفرق ليس بكبير في الفطرة بين الرجل والمرأة ، وليست المرأة بمحرومة من المزايا التي يعلو قدر المتحلى بمثلها من الرجال، ذلك أنّنا نرى لهنّ عقولاً سليمة ، وقلوباً كريمة ، وهمما عظيمة ، وهل للرجال ينابيع للمكارم غير هذه العقول والقلوب والهمم . ونرى الاديان اعتبرت المرأة كالرجل في التكليف بالعقيدة والعبادة والآداب . وترى الاجتماع اعتبر المرأة كالرجل في التكليف بالعمل وما زال نصيبها منه كبيراً وتابعا لتقسيم الاعمال على حسب مرتبة محيطها من العالم ثم على حسب مرتبتها من محيطها. وهذا غير ما نعلمه من فضل بعض الفاضلات

ص: 6

الماضيات اللّاتي تصلح سيرهنّ أن تكون هدًى للرجال قبل النساء ، ولولا تلك الزلّة التي ذكرناها للمؤرخين لكان اللّاتي نعلمهنّ أكثر وما اللّاتي نعلمهنّ الآن من الفاضلات بقلائل .

من هؤلاء سيّدة قد سمع بفضلها العالم كله ولكن العارفين سمع بتفاصيل فضائلها ومزاياها قليلون . الشرق سمع بهذه السيّدة والغرب، الترك يعظمون اسمها والعرب ، وفارس والهند ، والافغان والسند ، وفي أرض الصين تعظم ، وفي الدنيا الجديدة تكرم، وإذا فتحت دفاتر المؤرخين عفا الله عنهم لا- تجد فيها تحت اسم هذه السيّدة الجلييلة الاكلمات يسيرة في ترجمة حالها، وشرح خلالها، ولكننا نحن شاكروهم على هذه الكلمات التي يملأ سناها العقول والقلوب فتتهدي بها على قلتها الى عظيم أمرها كما يدرك المبحرون عظمة المنار اذا كانت أشعته عظيمة السطوع .

ولقد كنت تفكرت في ان اكافئ والدتي بعض المكافأة فتبينت بعد طول التفكير ان عظيم فضلها عليّ هو أبعد من أن يوفى شيء من حقه ولكن تراءى لي أنّه يسرّها أن أعلن للملا فضل جنسها وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس ولم أجد أحسن طريقة الى هذه الغاية الجلييلة من شرح سيرة هذه السيّدة التي هي احدى جداتها

فمن مدد تلك الكلمات القليلة التي تركها لنا المؤرخون في ترجمة

حال هذه السيدة أولف هذه القصة الحقيقية والى روح والدتي أرفعها هدية على راحة خشوعي وضعفي ، ومن خزائن رحمة الله ورضوانه أستنزل تحية طيبة مباركة لهذه الروح البارة .

ومن راقه هذا المؤلف الصغير وحصلت له به لذة وفائدة فلي حق أن أرجوه شيئاً ولا أرجوه إلا ان يكون مساعداً في اقامة حقوق المرأة وكرامتها وآدابها . ان النساء أمهاتنا معشر الرجال وعلى حسب تربيتهن نكون فلنطلب من محيطنا أن يهذب بالعلم الامهات ويسعى لترقية مداركهن وآدابهن !

ص: 8

(مقدمة)

إشارة

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل ثلاثة عشر قرناً على الحساب القمري حدث في الكون حادث عظيم جداً لم يحدث بعده مثله الى الآن ، وقد كان له دوي قوي وأثر كبير في آسيا وأوروبا وأفريقيا وخلفه انقلاب عظيم في ممالك الارض و تغير جسيم في أحوال الأمم والشعوب ، ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة وانضمامهم جميعاً الى كلمة النبي الذي قام فيهم منهم وهو محمد عليه الصلاة والسلام وشروعهم جميعاً بالهجوم على الممالك وفوزهم بهذا الهجوم وانتصارهم وغلبتهم على الامم وانضمام أمم كثيرة الى عقيدتهم وتكون ملكهم العظيم من حدود الهند إلى البحر الاطلانتيكي شرقاً وغرباً و من سواحل البحر الاحمر الى سواحل بحر قزوين شمالاً و جنوباً في أسرع ما عرف في التاريخ كله من الفتوحات الكبيرة السريعة .

هذا الحادث العظيم يتلقاه بعض الناس بغير تفكر كأنه معتاد الحدوث كثيراً فلا يبحث هؤلاء عن سرّ حدوثه ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكر بسر ذلك النجاح العظيم الذي أوتيته أولئك القوم بسرعة

جديرة أن نشبهها بلمح البصر . وبعضهم يتلقاه كما هو أي يفهم أنه حادث من أكبر الاحداث التي حدثت في الدنيا ويراه جديراً بالبحث والتأمل وامعان النظر ولدى التأمل نجد هناك جزئين تمّ بهما هذا الحادث العظيم الاول النبي محمّد عليه الصلاة والسلام والثاني الذين آمنوا به و نصروه من العرب. وبديهي أنّ أول مؤمن به هو صاحب الفضل الاول بعد النبي في إقامة هذا الصرح العظيم .

ومن الامور التي يحقّ أن يفخر بها جنس النساء أنّ هذا الفضل الاول أي السبق بالايمان به والموافقة له كان نصيب سيدة من أشرف قومه هي زوجته السيدة خديجة بنت خويلد من قريش . ولما كانت سيرة هذه السيدة الشريفة المساعدة في وضع الاحجار الأولى من هذا الحادث العظيم لا تخلو بالبداهة من فوائد جسيمة أزمت ان أقدم في هذه الاوراق لمحيي الفوائد الادبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية أعظم هدية مقتطفاً هذه الثمرات من دوحة حياة هذه السيدة الجميلة ولكن رأيت من اللازم جداً قبل دخولي بالقارئ على سيرتها أن أمرّ به مرة على قومها العرب عامة ثمّ قريش خاصة فإن تعرفه بهم يساعده على معرفة هذه السيدة الجليلة .

العرب

العرب كسائر الامم أوائلهم مجهولة ، وأحوالهم منذ عرفوا معروفة تقف الآن عند هاتين الكامتين وتلتفت قليلاً إلى مبحث لطيف نخنصر فيه الكلام ثمّ نعود الى سياق حديثنا

يزعم كثير من الاقوام اهم يعرفون أصول أمتهم الى أبي البشر الاول ومن الاقوام من يزعمون أنهم يعرفون سلاسل أصول الامم كلها حتى يصلوا بها إلى ذلك الاصل الاول .

ومن التزم التحقيق لا يستطيع أن يجزم بشيء مما يذكر عن تلك الاصول والاول . ومن تسامح بتصديق ما يروى يتشابه عليه الامر فيحار في تصديق المتناقضات، والترجيح بين المختلافات ، ومهما جنح الحريص على المعرفة الى الاستئناس بما يمكن قبوله من الحكايات في هذا الباب لا يستغني عن طرح كثير منها مما تقوم الأدلة على بطلانه.

لماذا حرص كل الشعوب على معرفة أسلافهم إلى أول أصل ؟ لاندري ولكن يلوح لنا أنه لذت للأكثرين دعوى هذه المعرفة فابتدع كل قوم اسطورة في بيان أصلهم ينقلها الآباء للابناء ويسطرونها في كتبهم تسطيراً .

اماً الباحثون عن انساب الشعوب فلما يسوا من هذه المعرفة فتعوا بأن تكون لهم معرفة ما بأصول الشعوب التي وجدوها متقاربة في اللغات وغيرها من المميزات وقد أنسوا من كثرة البحث والاستئناس بالمنقول ان البشر المعروفين اليوم هم من ثلاث سلالات (1) السامية و (2) الارياية و (3) التورانية .

وظاهر من هذا أنهم لما أرادوا وضع اسماء الاصول القليلة التي تفرعت منها هذه الشعوب المعروفة تساهلوا بقول بعض ما لفق في حكاية البشر مما قبل التاريخ ولكن هذا لا يروي في الحقيقة غليل المحققين ولا غليل الخياليين فسيظل المحققون صابرين على جهل مثل هذا، ويبقى

الخياليون مستمسكين بما قد حكي لهم من قبل وربما تسلى محب الحقيقة عن احتجاجها برؤية تماثلها وما تماثلها إلا أساطير الاولين .

أما نحن فنرى أنه لا حاجة للتسلي بتلك الاساطير لأننا اذا اشتبهنا المعرفة فأمامنا ممّا قد نستطيع معرفته ما تنفذ مراحل أعمارنا من غير أن تقطع في ميدانه شوطاً بعيداً، وما الوصول الى غاية في هذا الميدان ممّا يجوز ان نطمع فيه .

فإذا أردنا الآن أن نعرف العرب فعلينا قبل كل شيء أن نريح أنفسنا من الطمع بمعرفة سلسلتهم الأدمية الى آدم أو الى نوح بالتفصيل كما قطعنا طمعها من معرفة ذلك في سائر الامم فلهذا لا حاجة الى ما يذكره علماء الانساب من كون هذا الجيل من الاجيال السامية اذ يقال أنى لهم العلم بسام ابي الشعوب السامية وكيف يبني أهل الفن مبادئ على شيء غير معروف بالطرق التي تقيد العلم اليقيني ، وما أغنى من يريد ان يعرف جيلاً كالعرب عن الاستعانة بأساطير الاولين .

يقول المؤرخون انّ العرب ثلاثة أقسام (1) بائدة و (2) عاربة و (3) مستعربة. أمّا البائدة فهم العرب الاول الذين ذهبنا عنهم تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم وهم عاد، و ثمود ، وطسم ، وجديس، وجرهم الأولى ، واما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان ، والعرب المستعربة هم ولد اسماعيل بن ابراهيم .

هذا قولهم وهو لا يعجبني لأنّ البائدة ليست موجودة حتى تعدّ وان كانوا يعدونها لأنّ منها اشتقّ غيرها فهذه شهادة بأنّها لم تبدء وقد

ص: 12

ذكروا في هذا التقسيم عرب اليمن من ولد قحطان قسماً مستقلاً ولم يذكروا لنا ممّن هو قحطان هذا . وذكروا أولاد اسماعيل بن إبراهيم قسماً مستقلاً ولم يأتوا بدليل قويم على أنّه تفرع من اسماعيل ذرية مستقلة هم العرب المستعربة . وجلّ ما ذكروه أنّ اسماعيل الذي كان غريباً في جوار مكة المكرمة تزوّج بامرأة عربية من تلك القبائل التي كانت حولها، فهل انقطع نسل تلك القبائل حتى أصبح لا يذكر إذا ذكر العرب ثمّ تبارك نسل اسماعيل الغريب وحده حتى صار قسماً مستقلاً هو ثالث ثلاثة أو ثاني اثنين إذا ذكر العرب ؟ لسنا ندري ولكننا نعرف أنّ هذا من جملة الاقوال التي تكتسب بكثرة الموافقة في مرور القرون صبغة لا تزول فتغر الاكثريين وهي في الحقيقة لا تصبر على النقد والحك فليت أولي الالباب يكثر من حك هذه المشهورات .

وانّما يعجبني جداً في هذا الباب ما روي من أنّ النبي العربي عليه السلام كان اذا انتسب يقف عند عدنان ولا يتجاوزه ويقول كذب النسابون (1) ويعني بذلك الذين يزعمون معرفة الانساب إلى آدم أو الى نوح .

امّا الذي لا يغير النقد من سطوع جوهره شيئاً فهو أنّ العرب يوم ظهر فيهم النبي الذي أعلى شأنهم كانوا متفرقين في أقطار جزيرة العرب ومنقسمين قبائل كل قبيلة تذكر لنفسها نسباً تقف فيه عند رجل معروف لديها وتمسك عما وراءه. والمشهور أنّ لقبائل الحجاز أصلاً، ولقبائل اليمن أصلاً آخر ، والقبائل بعد ذلك أصول متفرعة من أحد الاصلين .

ص: 13

1- رواه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس وتتمته : قال الله تعالى «وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا».

وعرب العراق والشام ترجع الى أحد هذين الاصلين أيضاً، فعدنان هو أبو عرب الحجاز غالباً، وقحطان هو أبو عرب اليمن والعراق والشام غالباً.

وان قال قائل كيف عرف هذا عن العرب وهم أهل بادية متشتتون متفرقون، متقاتلون متدابحون، لا ملك لهم، جامع، ولا شرع فيهم وازع ولا يد لهم في الاعمال الاجتماعية، ولا نصيب لهم في الشؤون السياسية، وليس لهم قبل الاسلام كتاب معروف تدون فيه أخبارهم، وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم، فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة بما ينقل ويحكى عنهم ولسنا نعرفهم إلا بالاسلام، فالاسلام قد جمع الازواع من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو، وهذا لا يثبت أن العرب كانوا يعرفون لقبائلهم أصولاً وأنهم كانوا يتعارفون بأنسابهم؟؟

نقول لصاحب هذا القول انّ العرب لم يكونوا مجهولين ولا مجهولة أخبارهم فإذا قلنا انهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ فأشعارهم المحفوظة المنقولة هي ديوان سيرهم، واذا لم نثق بنقل أشعارهم استطعنا أن نعرف العرب من تاريخ الاسم المجاورة لهم. فالفرس قد سبروهم لأنّ من العرب ملوكاً كانوا لهم خاضعين، وقواداً كانوا بأمرهم عاملين. والروم قد خبروهم لأنّ في مملكتهم ملوكا وقواداً وولاة من العرب، والديانة المجوسية تعرفهم لأنّ منهم من كان على دين ملوك فارس، والكنايس تعرفت بهم لأنّ منهم نصارى بل قسيسين ورهباناً، وبيع اليهود ما جهلتهم، والناسفة ما أنكرتهم، والحضارة قد أمت بمساكنهم (في اليمن والعراق والشام) ومخالطة الامم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم، فكيف يكون هذا الجيل مجهولاً بعد كل هذا؟

إنّ العرب كانوا معروفين . وممّا عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية فكانوا أمام الغريب أمة واحدة لها وحدة باللغة والنسب واتصال الديار والعصبية عند التناصر فإذا رجعوا الى ما ينهم كانوا قبائل شتى تنسى كل قبيلة الى أب لها ثمّ يجمع قبائل كثيرة منهم أب واحد وهكذا. ولا يستبعد من أمة محتاجة الى التناصر وليس لها كسائر الامم كتاب يجمع أخبارها وسير ابطالها أن يعني كثير من أفرادها يحفظ ذلك في أذهانهم وأية أمة ممن نرى يتناسى أفرادها سيرة أبطالهم . وقد كان الرجل من العرب اذا عظم أمره أو كثر ماله إنفرد بأهله وانتمت اليه الذرية ووضعوا لأنفسهم نسبة جديدة من غير أن يضيعوا حظهم من الارتباط بالنسبة الاولى لأنّ لهم عند التناصر حظا منها عظيما .

يذكر أحد علماء هذا الشأن أنّ العرب كانت قبائلهم ارحاء وجماجم فالارحاء هي القبائل التي أحرزت دوراً وميهاً لم يكن للعرب مثلها ولم تبرح من أوطانها ودارت في دورها كالارحاء على أقطابها إلا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجذب والجماجم هي القبائل التي يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت باسمائها دون الانتساب اليها فصارت كأنها جسد قائم وكلّ عضو منها مكتف باسم معروف بموضعه .

وكان علم النسب من جملة علوم العرب قد أثره عنهم أهل الرواية أول كل شيء . ونقلوا فيه حكايات كثيرة (منها) ماذكروه عن يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس وذلك أنّه رأى في منى رجلاً على راحلة ومعه عشرة شباب بأيديهم المحاجن ينحون الناس عنه ويوسعون له

فدنا منه وقال له : ممن الرجل فقال «أني رجل من مهرة ممن يسكن الشجر» قال يزيد فكرهته ووليت عنه فناداني من ورائي مالك قلت «لست من قومي و لست تعرفني ولا- أعرفك» قال ان كنت من كرام العرب فسأعرفك قال يزيد فكررت عليه راحلتي وقلت «أني من كرام العرب» قال فمن أنت ، قلت « من مضر» قال «فمن الفرسان أنت أم من الارحاء» فعلمت أنه أراد بالفرسان قيساً وبالارحاء خندفاً . فقلت : بل من الارحاء قال أنت امرؤ من خندف قلت نعم ، قال «من الارومة أنت أم من الجماجم؟»

فعلمت أنه أراد بالارومة خزيمة وبالجماجم بني اذ بن طابخة . قلت « بل من الجماجم» قال «فأنت امرؤ من بني اذ بن طابخة» قلت «أجل» قال « قال فمن الدواني أنت أم من الصميم : فعلمت أنه أراد بالدواني الرباب ومزينة وبالصميم بني تميم . قلت «من الصميم» قال « فأنت اذا من بني تميم» قلت أجل ، قال «فمن الاكثرين أنت أم من الاقلين أو من اخوانهم الآخرين؟» فعلمت أنه أراد بالاكثرين ولد زيد وبالاقلين ولد الحارث وبإخوانهم الآخرين بني عمر و بني تميم . قلت «من الاكثرين» قال «فأنت اذا من ولدزيد» قلت «أجل» قال «فمن البحور أنت أم الذرا أم من الثماد؟» فعلمت أنه أراد بالبحور بني سعد وبالذرا بني مالك بن حنظلة وبالثماد امرأ القيس ابن زيد، قلت « بل من الذرا». قال «فأنت رجل من بني مالك بن حنظلة»، قلت «أجل» قال «فمن السحاب أنت أم من الشهاب أم من اللباب» فعلمت أنه أراد بالسحاب طهية وبالشهاب نهثلا وباللباب بني عبد الله بن دارم. فقلت له « من اللباب» قال «فأنت من بني عبد الله من دارم» قلت «أجل» قال «فمن البيوت أنت أم من الدوائر؟» فعلمت أنه أراد بالبيوت ولد زرارة والدوائر

الاحلاف . قلن « من البيوت» ، قال « فأنت يزيد بن شيبان بن علقمة ابن زرارة بن عدس وقد كان لأبيك امرأتان فأيهما أمك ؟»

ولقد غلط من ظنوا أنّ العرب لم يكن لهم من حضارة ولم يكونوا على شيء مما عليه الامم من الروابط كلابل كان لهم حضارات وملوكهم التابعة في اليمن معروف أمرهم عند المشتغلين بالتاريخ . وملوك الحيرة (في العراق) مشهورون من عرف تاريخ الفرس عرفهم و إن جهل تاريخ العرب أولهم مالك بن فهم بن غنم بن دوس من سلالة الازد من ولد كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف الفارسيين وملك بعده أخوه عمرو بن فهم ثم ملك بعد عمرو ابن أخيه جذيمة الابرش بن مالك بن فهم وجذيمة هذا هو صاحب الحديث المشهور مع الزباء (زوييا) صاحبة تدمر وخلاصة الحديث فيما يروي مؤرخو العرب ان جذيمة قتل أباه فاحتالت عليه الزباء وأطمعته في نفسها حتى اغتر وقدم اليها فقتلته وأخذت بثار ابيها . وبعد قتله انتقل الملك الى يد ابن اخته عمر و اللخمي جد الملوك المناذرة اللخمييين .

والمملوك الغسانيون في الشام مشهورون أيضاً لا يجهلهم من عرف تاريخ الرومان اذا جهل تاريخ العرب . وأصل غسان من اليمن من بني الازد ابن الغوث ، تفرقوا من اليمن بسيل العرم ، ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعمة من سليح فأخرجتهم غسان من ديارهم وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم .

ص: 17

وأول من ملك من غسان جفة بن عمرو بن ثعلبة ، وكان ابتداء ملكهم قبل الاسلام بربع مئة سنة وقبل أكثر من ذلك، ولما ملك جفنة وقتل ملوك سليح دانت له قضاة ومن بالشام من الروم، وبنى بالشام عدة مصانع ولما مات ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة ، وبنى بالشام عدة ديور منها دير حالي ودير أيوب ودير هند ، ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وبنى صرح الغرير في أطراف حوران ممّا يلي البلقاء. ثم ملك الحارث بن ثعلبة ، ثم ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث وبنى القناطر وأدرح والقسطل ، ثم ملك بعده ابنه الحارث بن جبلة وكان مسكنه بالبلقاء فبنى بها الحفير ومصنعه ثم ملك بعده المنذر الأكبر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة الاول ، ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحارث ثم ملك بعده أخوه جبلة بن الحارث ثم ملك بعدهم أخوهم الايهم بن الحارث وبنى دير ضخم ودير النبوة . ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث ثم ملك جفنة الاصغر بن المنذر الأكبر ، وهو الذي أحرق الحيرة ، وبذلك سموا ولده آل محرق ثم ملك بعده أخوه النعمان الاصغر بن المنذر الأكبر ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر ، وبنى قصر السويداء ولم يكن عمرو وأبو النعمان المذكور ملكا وفي عمرو المذكور يقول النابغة الذبياني

علّي لمرو نعمة بعد نعمة *** لوالده ليست بذات عقارب

ثم ملك بعد النعمان المذكور ابنه جبلة بن النعمان ، وهو الذي قابل المنذر اللخمي بن ماء السماء . ثم ملك بعده النعمان بن الايهم بن الحارث بن ثعلبة ، ثم ملك أخوه الحارث بن الايهم ، ثم ملك بعده ابنه النعمان بن الحارث ، وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة وكان قد خربها بعض

ملوك الحيرة اللخمييين ، ثمّ ملك بعده المنذر بن النعمان ، ثمّ ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ، ثمّ ملك أخوها حجر بن النعمان ، ثمّ ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثمّ ملك ابنه جبلة بن الحارث ، ثمّ ملك ابنه الحارث ابن جبلة ، ثمّ ملك ابنه النعمان بن الحارث ، ثمّ ملك بعده الايهم بن جبلة ابن الحارث وهو صاحب تدمر وكان عامله يقال له القين بن خسرو بنى له قصرًا بالبرية عظيمًا ومصانع . ثمّ ملك بعده اخوه المنذر بن جبلة ثمّ ملك بعده اخوهما شراحيل بن جبلة ثمّ ملك اخوهم عمرو بن جبلة ثمّ ملك بعده ابن اخيه جبلة بن الحارث بن جبلة ، ثمّ ملك بعدهم جبلة بن الايهم بن جبلة ، وهو آخر ملوك بني غسان ، وهو الذي اسلم في خلافة عمر ثمّ عاد الى الروم .

ومن ملوك العرب ملوك كندة الذين من سلالةهم امرؤ القيس الشاعر المشهور أولهم حجر آكل المرار بن عمرو وخلف على الملك ابنه عمرو المقصور سمى بالمقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثمّ ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وقوي ملك الحارث المذكور لانه وافق كسرى قباد بن فيروز على الزندقة والدخول في مذهب مزدك فطرد قباد المنذر ابن ماء السماء اللخمي عن ملك الحيرة وملك الحارث المذكور موضعه فعظم شأن الحارث المذكور فلما ملك انوشروان أعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغاب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وأربعين نفساً من ذوي قرباه فقتلهم المنذر في ديار بني مرين وهرب الحارث إلى ديار كلب وبقي بها حتى مات . ومن أولاد الحارث هذا حجر أبو امرؤ

ص: 19

القيس الشاعر وكان حجر قد ملكه ابوه على بني أسد بن خزيمة فبقي أمره متماسكا فيهم مدة بعد ذلك ثم تنكروا عليه فقاتلهم وقهرهم ودخلوا في طاعته ثم هجموا عليه بغتة وقتلوه غيلة وفي ذلك يقول ابنه امرؤ القيس أبياتاً منها

بنو أمد قتلوا ربهم *** ألا كل شيء سواه خلل

وطالب امرؤ القيس بهذا الملك بعد ابيه فاستنجد ببكر وتغلب على بني أسد فأنجدوه وهربت منهم بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن السماء فتفرقت جموع امرئ القيس خوفاً من المنذر ، وخاف امرؤ القيس منه أيضاً فصار يدخل على قبائل العرب، وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السمؤال بن عاديا اليهودي فأكرمه وأنزله وأقام عنده ثم سار الى ملك الروم مستنجدا به وأودع أذراعه عند السمؤال وكانت مئة وفي مسيره إلى ملك الروم قال قصيدة تشعر بلسان حاله ومنها قوله

تقطع أسباب اللبابة والهوى *** عشية جاوزنا حماة وشيزرا

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه *** وأيقن انا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما *** نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

وقد مات في هذا السفر بعد عودته من عند قيصر .

فبالله كيف تكون مجهولة الامة التي فيها الملوك والاقبال، وقد وقفت أمام الامم و الاجيال، سنين من الدهر ، لا يعرف لها حصر، لعمرك ان القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين، وأنهم كانوا متشنتين، من غير ملك جامع، ولا شرع وازع ، هو قول يرسله صاحبه من غير ان يكاف نفسه بحثا وهو لما يحط بذلك خيرا

ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا - ولدينا مزيد- كانوا هم أحق بمعرفة انفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم . وما نقل إلينا عنهم من ذلك ليس منه شيء فوق العقل ولا وراء الحس بل القرائن له شاهدة، وأمثاله أمام أعيننا مشاهدة ، واذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الاخبار لم يكن غيرها أحق بالثقة لعمر الحق فإنّ تزوير الاساطير لا يستبعد وقوعه في كل أمة من الامم ذوات الزبر والاسفار وليست الكتب أحق بالصدق من القرائن الشاهدة والنظائر الناطقة .

فمن شاء أن لا يثق بمنقول البتة لا يضرني رأيه ولا يضر التاريخ والمنقول ولا يضر العلماء الذين يحترمون التاريخ كثيرا وإنّما يضره وحده . يقلل استفادته من المنقول ، ويكثر وساوسه وغروره ، ثمّ يصل الى درجة لا يثق معها أحد بمعقوله .

ومن شاء أن يثق بالمنقول عن الامم دون العرب لا أناقشه لأنّه شهد لي على نفسه شهادة كافية ولا أزيده شيئاً على ما أوضحت به أنّ العرب تجوز الثقة ببعض ما ينقل عنهم كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم .

من أجل هذا نؤمن بما نقل إلينا من نسب سيدتنا التي نروي هنا سيرتها وهي خديجة القرشية فإنّ هذا النقل من النقول التي لا تجد النفس حاجة للتردد في قبولها .

وقد قلنا أنّنا انّ لهؤلاء العرب المعروفين أصليين معروفين عندهم و مجهول ما وراءهما وهما عدنان وقحطان ، فأمّا قحطان فقد أخذت ذريته

يحفظها من الملك لأن كل ملوك العرب المشهورين كانوا من ذريته وأما عدنان فإن حظ ذريته تأخر قليلا ولكنه كان لمظمه متجاوز النسبة أي أنه لا نسبة بين حفظ القحطانيين الذين كان يقوم منهم ملوك ثم ينطفئ مجدهم و حظ اخوانهم العدنانيين الذين أشرق منهم نورمبين بهر العالمين أجمعين .

فلذلك فلم هنا بذكر الذرية العدنانية دون الذرية القحطانية لأننا نريد أن يتعرف القاري، بقوم خديجة الخصوصيين . «فعدنان» ولد له «معد» و«معد» ولد له «نزار» وأولاد نزار أربعة «مضر» وإياد وربيعه وأنمار وقد فارق إياد الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق . ومن ذريته كعب بن مامة الايادي المشهور بالجود وقس بن ساعدة الايادي المشهور بالفصاحة. ومن ذرية ربيعة بن نزار قبائل عنزة وبكر ووائل وتغلب ومن تغلب كليب ملك بني وائل الذي قتله جساس فهاجت لقتله الحرب بين بني وائل وبين بني بكر وبين بني تغلب. ومن بني بكر ابن وائل بنو شيبان ومن مشهوريهم مرة وابنه جساس قاتل كليب وطرفة ابن العبد الشاعر ومن بني بكر بنو حنيفة ومن مشهوريهم سيلمة الكذاب .

وولد لمضر بن نزار «إلياس» وقيس عيلان وكثرت ذرية قيس هذا فمن ذريته قبائل هوازن و من هوازن بنو سعد بن بكر الذين منهم مرضعة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أو من ذريته بنو كلاب وقبائل عقيل وبنو عامر و صعصعة وخفاجة وبنو هلال وتقيف وبنو نمير وباهلة ومازن وغطفان وبنو عبس الذين منهم عنترة المشهور وقبائل سليم وبنو ذبيان وبنو فزارة وكان بين بني عبس وبني ذبيان حرب داحس التي ظلت أربعين عاماً، ومن بني ذبيان النابغة الذبياني الشاعر المشهور

وولد لالياس بن مضر «مدركة» وطابخة ومن ذرية طابخة بنو تميم والرباب وبنو ضبة وبنو مزينة .

وولد لمدركة بن الياس «خزيمة» وهذيل والى هذيل هذا انتسب جميع قبائل الهذليين ومنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور .

وولد لخزيمة بن مدركة «كنانة» وأسد والهون و ولد لكنانة ابن خزيمة «النضر» وملكان وعبد مناة وعمرو وعامر ومالك فمن ملكان بنو ملكان ومن بني عبد مناة بو غفار ومن مشهورهم أبو ذر ، وبنو بكر. ومن بني بكر هؤلاء الدئل ومن مشهورهم أبو الاسود الدئلي وبنو ليث وبنو الحارثة وبنو مدلج وبنو ضمرة .

وولد للنضر بن كنانة «مالك» ولم يعرف له ولدسواه وولد لمالك هذا «فهر» وفهر هذا هو الذي سُمى قريشاً ولم يولد لمالك غير فهر

وولد لفهر «غالب» ومحارب والحارث فمن محارب بنو محارب ومن الحارث بنو احلج ومن مشهورهم أبو عبيدة بن الجراح وجميع ذراري فهر يقال لهم قرشيون .

وولد لغالل بن فهر «لؤي» وتيم الادرم و من تيم المذكور بنو الادرم ومعنى الادرم ناقص الذقن .

وولد للؤي بن غالب «كعب» وسعد وخزيمة والحارث وعامر وأسامة . ومن ذرية عامر بن كعب عمرو بن ود فارس العرب الذي قتله عليّ بن أبي طالب (عليه السلام).

وولد لكعب بن لؤي «مرة» وهصيص وعدني فمن هصيص

بنو جمع ومن مشهورهم أمية بن خلف وأخوه أبي بن خلف وكلاهما كانا عدوين عظيمين للنبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ومن هصيص أيضاً بنوسهم ومن عدي بنو عدي ومن مشهورهم عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد .

وولد لمرة بن كعب «كلاب» وتيم ويقظة فمن تيم بنو تيم ومن مشهورهم أبو بكر الصديق وطلحة ومن يقظة بنو مخزوم ومن مشهورهم خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام .

وولد لكلاب بن مرة «قصي» وزهرة ومن ذرية زهرة سعد ابن أبي وقاص وآمنة أم النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وعبد الرحمن بن عوف وقد كان قصي هذا عظيماً في قريش وهو الذي ارتجع مفاتيح الكعبة من بني خزاعة وهو الذي أثل مجدهم .

وولد لقصي بن كلاب «عبد مناف» وعبد الدار وعبد العزى فمن بني عبد الدار بنو شيبه حجاب الكعبة ومن مشهورهم النضر ابن الحارث كان من اشداء اعداء النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ، ومن عبدالعزى ايضاً سيدتنا خديجة بنت خويلد التي تروي سيرتها وولد لعبد مناف بن قصي «هاشم» وعبد شمس والمطلب ونوفل فمن عبد شمس امية ومنه بنو امية ومنهم عثمان بن عفان ومعاوية بن ابي سفيان مؤسس الملك الاموي. ومن المطلب ابن عبد مناف المطليبيون ومن ذريتهم الامام الشافعي ومن نوفل النوفليون .

وولد لهاشم «عبد المطلب» ولم يعلم له ولد سواه . وولد لعبد المطلب «عبد الله» وحمزة والعباس جد الملوك العباسيين

وولد لعبد الله بن عبد المطلب «محمد» النبي عليه الصلاة والسلام

الفصل الأول (مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة)

نشأت خديجة في بلد شأنه عجيب ، قصي عن العمران ، في واد غير ذي زرع ، لا تنساب فيه الأمواه، ولا تكتنفه الحدائق، ولا تقوم للصناعات فيه دولة ، ولا يجد مبتغي الزخارف لديه مجالاً ، ولكن أبدله الله جمالاً معنوياً، وكساه جلالاً روحانياً ، فالأفئدة تهوي اليه، والمطايا تزجي له من كل فج عميق ،

هذه البلدة المقصودة هي «مكة» المكرمة الشهيرة التي لا يجهل اسمها وشهرتها أحد، هي أم البلاد العربية واقعة في القطعة المسماة الحجاز من شبه جزيرة العرب، قائمة بيوتها في سفوح جبال محيطة بها .

لم تقف على مقدار عدد نقوسها في تلك الايام التي نشأت فيها خديجة والممكن عدد مقاتلها لم يكن يتجاوز الالفين في الغالب فيمكننا ان نحزر أهلها اذ ذاك بنحو خمسة عشر ألفا كلهم أولاد أب واحد قد ورثوا باستعدادهم لا ينسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممّن كان قبلهم من القبائل . وذلك أنّ قصي بن كلاب استطاع أن يجمع جميع ذراري فهر بن مالك إلى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل فلم تلبث أن صارت لهم خاصة

وفي مكة هذه بيت مقدس قديم العهد يكاد يكون أول أمره مجهولاً عند المشتغلين بالتاريخ اسمه بيت الله أو الكعبة . وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التي شرفوها ويحجون إليه ، ويتعارفون ويتعاطفون لديه .

كانت هذه البلدة المشرفة تضم بين تلك الجبال المهيبة أمة صالحة الاستعداد للرفي متى أريت طريقه كما تضم الصدفه جوهرة لا يظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بعض المعالجة وتزال عنها القشور أما من حيث الحضارة فلم تكن كما ينتظر ابن حضارة هذا العصر من البلدان وإنما هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة واللبن ومسقوفة بجذوع النخل خالية من الزخرف .

وهذا البلد الامين باق الى يومنا هذا لم يزد على طول القرون إلا تشريفاً وتكريماً ولم يتغير فيه إلا أشكال الابنية وازدياد التجارة والبيت المشرف لم يتغير وضعه ولا وضع الشعائر التي حوله وإنما بني هناك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعي .

ومكة معدودة اليوم من جملة بلاد الدولة العلية العثمانية بيدانها لم تحرم حتى الآن من أمير عربي يتصل نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذها فيها وفيما حولها نفوذ تام يستمد من السلطان العماني ومن احترام العرب لهذه السلالة .

ومن الآثار المشهورة الباقية في مكة بئر زمزم ويقولون ان قبيلة جرهم كانت دفنتها ثم احتفرها عبد المطلب بن هاشم جد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وكان ذلك من مفاخر عبد المطلب لأنه لم يكن بمكة من ماء إلا في آبار

بعيدة عن البيت المشرف فلما أخرج عبد المطلب زمزم في جوار البيت انصرف الحاج إليها . ولحفر زمزم حديث طويل خلاصته تدلّ على شغف عبد المطلب بتسهيل الماء على الحجاج فإذا تأملنا في حرص القوم على مثل هذه العناية بالغرباء وابناء السبيل نعلم شيئاً من روح تربية الهمم وترقية العواطف في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه «خديجة»

وكان من جيد أمر أهلها في مجتمعهم ذلك أنهم اقتسموا النظر في الامور العمومية فيما بينهم فكأنهم كونوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام وكان أمر هذه الجمهورية الغريبة الوضع سائراً على منتهى النظام ولكن لم يكن هذا النظام لسراً في ترتيب هذه الجمهورية فإنها لا يؤمل منها في حد ذاتها ان تثمر نظاماً بالغاً منتهى الجودة والقوة وإنما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية فالأخبار كلها دالة على أنّ القوم بالجملة كانوا كأنهم مفطورون على التضامن التام فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذي لا نعهد له نظيراً أنّ كل فرد من أفرادها تام الحرية لا يشعر بقهر حاكم ولا يخشى سطوة جبار وكل منهم في أمن من قوات الحقوق واعتداء الحدود . الجنائيات قليلة، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة ، والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد مسدودة ، وسلامة الفطر غالبية، والمزايا التي بها كمال الانسانية راجحة .

فإذا أضفنا الى كلّ ذلك احترام الغريب وتوقيره اياهم وتوقيه اذاهم نجد أنّ ذلك المجتمع لا يكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصالح في هذا المجتمع كان فيه عيوب فإذا أزيلت يصبح أول مجتمع راق في الدنيا وخليقاً ان يفيض على جيرانه من بركات العقول التي أشربت

بديع جماله ، وأشرأبت إلى عظيم كماله، ثم تآقت الى تعريف العالم بما أكنت تلك البقعة التي لم تكن شيئاً مذكوراً من العقول المنيرة والارواح العالية .

وقد وقع ذلك فإنّ الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد أتاح لهذا البلد الجمهوري، من ينظفه من تلك العيوب التي اشترنا إليها فكان بعد ذلك كما هو المنتظر منه أي تمّ ظهوره فصار مشرقاً لنور عظيم بلغ مشارق الأرض ومغاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استعدادهم .

أما الجمهورية التي أشرنا الى أنّها كانت في هذا البلد فقد أقاموها على أساس يأمنون منه من الزلزال وذلك أنّهم رأوا الشرف انتهى الى عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة، ثمّ اجمعوا امرهم على أن يكون النظر في الأمور العمومية من خصائص هذه البيوت العشرة و تراضوا على أن يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة يختصّ بها تعدّ من مفاخره فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم الاشراف وبذلك أعطوا الاعمال التي يمجّد بها الفرد أو الاسرة حقها من التكريم والتشريف ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم وأخذوا أيضاً بشيء من أصول الحكم النيابي وهو أعظم الآيات على وجود التضامن الذي هو أحد الاركان التي تحفظ بها سعادة الامم .

أما الشورى فقد وفّروا منهم حظها، وعظّموا في أنفسهم حقها ، وبها كانوا يشرعون ما يشرعون من الاحكام والحدود ، ويفصلون ما يفصلون في بعض القضايا والحقوق.

وقد ألغوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدّوها لغواً اذا صدقوا في تضامنهم وصلحوا في تشاورهم وارادتهم الحق وقليلة الجدوى اذا مرض

تضامنهم ووهي نظامهم . أو أنّهم خشوا أن يكون حب الرئاسة اذا وجدت مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بعد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الأقرين . أو أنّهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحداً لأنّهم كلهم يحملون بين أضالعهم نفوس الملوك وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحداً في وظيفة رئيس عام مؤقتاً .

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا أولي شغف بالمحاربات فعلاقاتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة ولكن هذا لم يقعدهم عن أن يكون استعدادهم تاماً لما ينزل بهم فإن نزل بهم ما يطيقونه كشفوا الثم عن قوتهم وبرزوا من غير تريث وإن نزل بهم ما لا قبل لهم به تريثوا وعمدوا إلى الأناة وفتقوا من الحيلة أبواباً يخرجون منها مالا إلى السعة من الضيق ومن قلّ الجيوش بالحسام إلى فلها بالبيان وقد أعطوا من هذا حظاً عظيماً .

ومن أشهر حوادثهم الخارجية التي ضاقوا بها ذرعا هجوم القائد الحبشي أبرهة الذي كان قلب على بعض بلاد اليمن فقد دهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقابله عبد المطلب جد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابله ولطف بعض التي من حدته التي كان بها مسوقا لهدم «بيت الله» على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخبار ثم أصابته داهية سماوية ففعل بجيشه ثانياً عزمه لأنّه رأى في اهل هذا البلد مالم يكن يخطر له في بال .

نعم رأى في مقدمه هذا على هؤلاء القوم عجباً من الأمر وذلك

أنه لما أتاهم أرسل اليهم رجلاً حميرياً كان معه اسمه حناطة وأوصاه ان يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فيبلغه ان الملك لا يريد الحرب وإنما جاء لهدم هذا البيت فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب إننا لا نريد حربه قال حناطة أنه أوصاني بأنه يريد مواجعتك إن لم تريدوا الحرب فانطلق عبد المطلب مع حناطة اليه فلما رآه أبرهة رأى الوسامة والجلال فأعظمه واكرمه وأخذه الى جانبه وقال للترجمان سله أن يقول ما يبدو له فلم يكن من عبد المطلب إلا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت و جداله فيه بل أظهر الاقتناع بضرورة المسالمة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المعبد وقال له إذا لم يكن لك غير هذا الأرب فردّ علينا أبلنا قال أبرهة للترجمان قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في الاموال وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك فأجابه عبد المطلب إننا نحن أرباب المال وأما البيت فله ربّ هو سيمنعه فقال له أنه ما كان ليمتنع مني فأجابه أنت وذاك وردّ ابرهة الابل على عبد المطلب وبقي مصرأً على عزمه ورجع عبد المطلب على قريش فأمرهم ان يعتصموا بالجبال، ولا يأتوا أمراً حتى يروا ماذا يكون وقد أتى من لدن العناية الغيبية ما لم يكن في الحساب فإنّ أبرهة لما أصبح وتهدى لدخول مكة برك الفيل الذي كان يركبه وحرن واتوا كل باب من أبواب الحيل ليقوم ويمشي تلقاء مكة فلم يقدّم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنّف من الطير فتشاءم ابرهة وتذكر ما انذره به ذلك الرجل الجليل السني

الطلعة عبد المطلب من حماية هذا البيت بطريقة لا يبلغها عقله فخدمت في صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه بالسلم ورموا عقله بسهم نافذ من بيان عبد المطلب مع رمي الطير جيشه بحجارة من سجيل .

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية واشهرها . وفي عام هذه الحادثة ولد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وقد سمّوه عام الفيل لما ذكرنا من قصته . ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعدها باسم أصحاب الفيل وقد أشير الى مجمل هذه الحادثة في القرآن المجيد .

الفصل الثاني (بيونات قريش وخصائصها)

أما بيوت شرفهم العشرة فهي

هاشم ، وامية ، ونوفل ، وعبد الدار ، واسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجمع ، وسهم ،

واما الأمور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي : السقاية ، والعمارة ، والعقاب ، والرفادة ، والحجابه ، والسدانة ، والندوة ، والمشورة ، والاشناق ، والقبه ، والاعنة ، والسفارة ، والايثار ، والاموال المحجرة ، هذه الاسماء أكثرها اصطلاحية يحتاج الى تفسير يوافق العصر الذي نحن فيه حتى نفهم شكل ذلك المجتمع الذي سميناه جمهورياً على حسب اصطلاح عصرنا .

ص: 31

فأما السقاية فقد تقهّم من اللفظ نفسه أي سقاية الحجاج الذين كانوا يأتون « بيت الله » من كلّ جانب ولا يخفى على أحد أنّ العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أهمّ الامور العمومية في ذلك الظرف وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة .

وأما العمارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام سفیه قبيح أو يرفع فيه صوته وكانت هذه الوظيفة أيضاً في بني هاشم الذين منهم العباس صاحبها .

وأما العقاب فهي راية قریش كان من شأنهم فيها أنّهم يحفظونها في بيت من البيوت العشرة فإذا وقعت حرب أخرجوها فان اتفقوا على أحد منهم اعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد كانت هذه الوظيفة أي حفظ هذه الراية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها .

وأما الرفادة فمعناها الاسعاف وكانوا يجمعون من أنفسهم أموالاً لرفد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث بن عامر صاحبها .

وأما السدانة والحجابه فمعناها خدمة « بيت الله » و حفظ مفتاحه والظاهر من هذه الوظيفة أنّها دينية ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته بتدبير الشؤون الاجتماعية وهذا العمل الديني نفسه قد كان عند القوم من أهمّ الامور العمومية في مدينتهم وجمهوريتهم .

وقد نستطيع ان نشبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتمدنة اليوم ولا يخفى أنّ وظائفهم من مميزات مدينتهم، ولمن

يتولونها شأن يذكر عندهم. وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبد الدار الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها .

وأما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني عبد الدار أيضاً .

وأما المشورة فيريدون بها رئاسة الشورى وليس ببعيد عن الصواب إذا شبهناها من بعض الوجوه برأسه الوزراء أو رأسه مجلس الاعيان وكانت هذه الوظيفة من خصائص بني أسد وكان يتولّاها منهم يزيد بن زمعة ابن الاسود وكان من شأنهم في هذه الوظيفة ان رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فإن أعجبه وافقهم عليه والا تخير وكانوا له أعواناً .

وأما الاشناق فهي الديات والمغارم فقد كانوا يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرمأ أودية وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من خصائص بني تيمم الذين منهم أبو بكر الصديق فكان أبو بكر اذا نهض من أحد صدقه قريش واعانوا من نهض معه وان نهض غيره خذلوه .

وأما القبة فأشبهه شيء بنظارة الحربية ولكن كانوا يعتمدون إليها وقت الحرب فقط وامل ذلك لسداجة الحرب اذ ذلك أو لاستعدادهم لها كل وقت إذا تأججت نيرانها وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون إليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهم خالد بن الوليد صاحبها .

وأما الاعنة فيمنهاها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومي أيضاً و خالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد العام في

الاسلام الجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام وما أظن تاريخ فنّ التعبئة اليوم يخلو من الاستئناس بذكر تلك التدابير المخزومية كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أو الجمهورية).

وأما السفارة فالمراد بها ظاهر وقد كانوا يحتاجون إلى السفارة في الحروب أي في أوائلها أو بعد شوب نارها وتعاضم أوزارها ويحتاجون إليها اذا نافرهم حي للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص بني عدي الذين منهم عمر بن الخطاب صاحبها وناهيك بذلك الخليفة الثاني الشهير بكل منقبة صالحة اذا كان سفير قوم .

وأما الايسار فهي الازلام والقдах كانوا يضربون بها إذا أرادوا أمراً وكان هذا من خرافاتهم وعبوبهم ويحقّ لنا أن نبالغ في استهجان هذه الخرافة التي كانوا عليها إلا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء الخرافة كما هو الحال في كثير من الامور الباطلة التي تروج في الامم بسماح من العقلاء أو بترويج منهم لها وقد كانت هذه الوظيفة لبني جمح الذين منهم صفوان بن أمية صاحبها .

وأما الاموال المحجرة فهي الاموال التي سمّوها لآلهتهم ويصح أن تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اي ان بينهما تشابهاً . وقد كانت هذه الوظيفة أي تولي النظر في الاموال المحجرة من خصائص بني سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها .

هذا ماكان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة . وأما الامور الجزئية التي كان الافراد يختلفون فيها فتفصل فيها كبار أسرهم عشائهم في الغالب على طريقة التحكيم ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة

وانما كانوا يقضون في الامر كما يبدو لهم الصواب فيه ويقيسون الامور باشباهها .

وهنا يخطر في بال القارئ أن يسأل عن الضعيف الذي لا يأوي الى ركن شديد من رهطه كيف كان حاله اذا أهين أو ظلم في ذلك المجتمع الذي لا شريعة فيه مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع القوي عن الضعيف. وقد بحثنا في هذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم ينسوها ولم يهملوا شأنها وذلك أنهم قرروا في مؤتمر لهم حماية الضعيف والذود عنه وكان من حديث ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت في دار عبد الله بن جدعان الشهير وتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا في مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلومه قسمت قريش ذلك حلف الفضول وكانت الارهاط المتعاقدة بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزي وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة .

نعم كان من النقص في نظامهم ذلك أن لا تكون حماية الضعيف من خصائص الجمهور ولكن يظهر أنهم كانوا يكتفون في الضعيف بأن يجيره واحد من بيوت العزة والقوة فإنه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور فلا يجسر أحد أن يبغى عليه .

ويمكننا ان نستخلص من كل ما تقدم ان القوم كان لهم شبه قانون أساسي إلا أنه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية أو جنائية قط . والأمر في الامور المدنية سهل في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع فيها ان يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه. وأما الحوادث

الجنائية فلا يجوز اهمالها وتركها من غير أن يتولى الفصل فيها أناس مقيدون بقوة تنفيذية مخافة أن تكثر الجنایات ولكن تكافؤ القوى في العشائر والبطون المتساكنين في بلد واحد قد يكون مانعاً من كثرة الجنایات وإذا اضعف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هذا نعم الظهير على تقليل العدوان وقد كان القوم يتواصلون باجتتاب الظلم ولا سيما في البلد الامين ومن وصاياهم في ذلك قول إحدى نسائهم توصي ابناً لها:

أبني لا تظلم بمك *** لا الصغير ولا الكبير

واحفظ محارمها بني *** ولا يغرنك الغرور

أبني من يظلم بمك *** يلق أطراف الشرور

أبني يضرب وجهه *** ويلح بخديه السعير

أبني قد جربتها *** فوجدت ظالمها يبور

والله آمنها وما *** بنيت بعرضتها قصور

والله آمن طيرها *** والعصم تأمن في ثبير

وتواصيهم بالنهي عن الظلم يغرينا بتعرف فلسفة القوم التي كانت تحتهم على مثل هذا .

الفصل الثالث - ديانة أهل مكة عند البعثة

ويظهر لنا أنهم طرّقوا كسائر الامم باب الضالة المنشودة وهي معرفة ما هي نفوسنا ومن أين مبدأها وإلى أين منتهاها و ماذا يزكيها وماذا يدسّيها .

نعم طرّقوا هذا الباب ولكن لم يفتح لهم عن الطريق الموصل إلى

هذه الحقائق المكنونة بل كان نصيبهم اكثرين ظنوناً ورجماً بالغيب .

أدرك القوم أنّ للعالم خالقاً ومدبّراً هو الذي خلق السموات والارض وما فيهنّ، وهو الذي خلق السمع والابصار والأفئدة ، وقالوا كما يقول سواهم أنّه تستحب الرغبة اليه والرغبة منه ولكن في هذا السبيل تاهوا فتركوا ههنا العقل والتفكر وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة أوثاناً وقالوا أنّ تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لأنّ هذه الاوثان تماثيل أو كتماثيل لاناس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله .

لقد غلطوا في ظنّهم أنّ الله يحب هذه الحجارة. وأخطأوا بزعمهم أنّ تنزيل العقول إلى تعظيم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيماً قلبياً يرضي الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخليهم أنّ هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى .

وقد كان الواجب أن لا يكون في قلوبهم حبّ وعبودة الآ للحيّ القيوم ولم يكن جائزاً ان يشركوا به الجماد ،

وكان لهم أغلاط أخرى كثيرة في ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله فقد زعم بعضهم أنّ الملائكة بناته ، وزعم بعضهم أنّ الجن شركاؤه في الملك وظنّوا جميعهم أنّ لن يبعث الله بشراً ليعلمهم ويزكيهم ،

غلطوا في كل هذا وتسفّات فيه عقولهم ولكن اعتقادهم بأنّ للعالم صناعاً مدبراً عظيماً هو ربّ الكل وأنّه يجب ان يتقرب اليه العبيد قدرفق على ما فيه من النقص والبعد عن الطريق التويم قلوب كثير منهم وكأنّه أعدها لقبول حق سيظهر نوره فيمحق خطيئاتهم الاعتقادية

والمشهور انّ القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء الاخروي ولكن الحقيقة أنّهم كانوا في ريب وشكّ أي لم يكونوا جازمين بشيء في هذا الباب وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم إلى وجوب المعاد والجزاء الاخروي ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء الاخروي لم يكن مانعاً من تكون قلوبهم منجذبة الى الاخلاق والاعمال الطيبة التي تحثّ على مثلها الديانات من البر والإحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبغي وما أشبه هذه المناقب وعقولهم أنّما طرأ عليها التسفل الى تعظيم الجماد لأنّ الوثنية هي الغالبة في عصرهم ولا يبعد عن الصواب من يقول انّ الوثنية هي الغالبة على طباع البشر كلهم إلا قليلاً .

فاذا صرفنا نظراً عن تلوث عقولهم بنزغات الوثنية لا نجد من بعدها هذه العقول مظلمة وهي التي اضاءت لهم فعرفوا بها الاخلاق الصالحة والفاصلة ولم يكن يعوزهم إلا أن يقوم فيهم مرشد يهديهم للتي هي أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته والتقرب اليه بتوجيه الوجه واسلام القلب اليه ولولا انّ للقوم عقولاً صافية لما رجي لمجيء المرشد من فائدة لأنّه لا يظهر نور الارشاد إلا في اللوح النقي ولكن الرجاء بالقوم في محله فإنّه لما جاء المرشد لقي أراضى في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقي البذار وإلى جانبها أراض أخرى فيها من أعشاب التمسك بالقديم ما يحتاج الى زمن في معالجة ازالته وقليل من الأراضى كانت سبخة ليس في الامكان أن ينتج فيها البذار.

لا يهولنك من القوم سقم عقولهم فيما كانوا يعتقدون فإنّ البشر

كلهم إلا قليلاً كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم فوا أسفاه انّ هذا العيب عام وراسخ في البشر و من أصعب الاشياء استئصال جذوره ولا ندري السر في هذا ، ولكن انظر الى هذه الجماعة القليلة كيف أقامت لها شأنًا رفيعاً في العرب كلهم اذ غلبتهم على التوطن في جوار البيت المشرف وأحسنت المقام في هذا الجوار الشريف فقامت بحقوق حجاجه من سقائهم ورفادتهم ، وقامت بحقوق المستضعفين فيه من حمايتهم وتأمينهم ، وقامت بسنن التضامن والتعاون والتواصي بالعدل والاحسان حتى رضي العرب بتقديمهم عليهم إذا تقدموا وياهم لأمر عظيم وشرف جسيم على أنّهم ليسوا في العرب أكثر عدداً ، ولا أقوى ناصرًا . لا جرم قد خصهم الله بأفراد كانوا في نقاء القلوب آية ، وبلغوا في صفاء العقول الغاية ، والأمم والشعوب تحيا بأفراد وتموت بأفراد .

وإذا سخر الإله سعيداً***لأناس فانهم سعداء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد حرّيتهم التي كانوا عليها فإنّهم لما خلصوا من تملك أحد عليهم خلصوا من شرور كثيرة تتبع التملك فكانت معاشراتهم ساذجة خالية من عبارات الملق والخنوع وكانت مكاسبهم لانفسهم لا يشاركون فيها مشارك ولا يعرفون المغارم المرتبة والاتاوات المضروبة .

وهم في أمن من حيف القضاة لأنّهم يتحاكمون يوم يشاءون إلى من يرضونه من كبرائهم ولا-قانون لهم في المسائل الجزئية ترتعد من أحكامه فرائضهم وانما يخشون بأس بعضهم فيرتدعون عن الشر الذي يثار له العموم أو يثار له من أصابهم خاصة .

وكان جائزاً لأحدهم أن يتدين كما يريد بشرط أن لا يعيب دينهم الذي كانوا عليه ولا يدعو إلى ابطاله وقد كان لبعضهم فلسفة في النشور والجزاء الأخرى ول بعضهم انصراف عن عبادة الأوثان ول بعضهم ميل إلى تقليد أهل الكتاب فلم يكونوا يحاسبون أحداً على مثل هذا .

ولم يكن لديهم نوع من المبيعات حراماً بل يبيعون ويشترون كما يشاءون وكل منهم عارف بمصلحته ولهم هممة في التجارة والرحلة فيها إلى الشام وغيرها في الصيف والشتاء .

أما أهل الصنعة فيهم فلم يكن لهم من قيمة والغالب أن يكون الصناعات غرباء .

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهي امتهان الرقيق واحتقاره وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من إكراه امانه على البناء ليأخذ ما يعطين في سبيله .

أما نساءهم الحرائر فلم يكن جائزاً لهنّ الزنا ولا سيما إذا كان لهنّ بسولة بيدانه لم ينقل لنا أنّهم رتبوا على الزواني عقاباً بل كان عقابهنّ الى رأي أهليهنّ اذا شاءوا .

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهنّ أن يواجهن الرجال ويبرزن أما مهم حاسرات ويمكن أن يقال بالاجمال أنّ حرية الرجال والنساء كانت تامة ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق ولم يذكروا أنّه يستحق الرحمة لأنّه مسلوب أفضل كساء كساهمونه ربّهم الأعلى، الذي خلق فسوّى،

الفصل الرابع - (مقام النساء في قوم خديجة)

ملك كانت أحوال قوم خديجة في نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاماً مهيناً بل كان لها لديهم مقام كريم وجل ما عرف عنهم من انحطاط مقام المرأة انهم كانوا يكرهون البنات وانهم كانوا يئدونهن أي يدفنونهن في التراب وهن على الحياة «58:16 وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

هذا ما عرف عنهم ومن أخذ هذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لأن انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ولكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق .

إن كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار، وفيها الحمقى واولو الألباب ، وفيها القساة وأهل المرحمة . فليس من العقل ولا العدل أن يجعل عمل بعض الحمقى او القساة او الفقراء في بلد مثلاً و امرأة لأعمال جموع أهل البلد .

كان في مكة فقراء وحمقى وقساة كما هو الحال في سائر البلاد وكان

أناس قليلون من هذه الاصناف يأتون هذا العمل الفظيع نعتي الوأد (دفن البنات في الحياة في سن الطفولية) فلا ينبغي أن يقال بدون تقييد إن القوم الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يندون البنات . إن قوماً نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل أن يكونوا قتلة بنات كلاً أنهم لم يكونوا يقتلون الاجساد، ولم يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات ، وأما الذى نقل عنهم فهو عمل نفر يكادون لا يذكرون من فقرائهم او حمقاهم او قساتهم .

ولم يكن الذين يندون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع تغيظاً من هذه النسماة البريئة او احتقاراً الجنس المرأة كما يلوح لأول وهلة بل كان يسوقهم إلى ذلك فساد في الخيال وضعف عظيم في الطبيعة . وإن الخيال الفاسد ليزين المنكر حتى يظنه صاحبه من المعروف كما يشاهد كل واحد منا كثيراً .

كان منهم فقراء يزين لهم خيالهم الفاسد ان فتاتهم اذا ظلت في ميدان الحياة ربّما نالها ضيم من فقرهم وربما عجزوا عن ان يكرمهنّ بنفقة تساويهنّ باترابهنّ من ذوي قرباهنّ او جوارهنّ فيرون موارتهنّ فى التراب ، خيراً لهنّ من بقائهنّ دون الاتراب ،

لا- نكران للحق ان هذا الخيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه ان القنائة شجرة خبيثة يجب اجتنائها قبل النمو ويستحسن حرمان الوجود من ثمراتها وإنما زين له سوء عمله هذا من طريق اخرى هى كرامة فتاته .

يتخيل ذلك المسكين ان فتاته إن عاشت تعيش مثله في غصص تذيب الفؤاد ولوقد من الجلمود ، وكرب تسود الوجوه البيض وتبيض الشعور السود ، فيزين له خياله ان يحمي كريمته فلذة كبده من مثل هذه الحياة التي بلاها فقلاها وان يتقي بألم ساعة عند توديعها وتسليمها إلى الابد آلام سنين يراها فيها كثيرة النصب قليلة النصيب كما يتقي أحدهم بألم الكي آلام سقم مزمن .

وكان منهم حمقى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما وقعت في يد من لا يرعى له ولها حرمة. ولوقضي على كل البشر بمثل هذه الوسوس لأذنت الدنيا بالانقضاء ولكن الموجد لم يشأ إلا أن تكون الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوسوس سلطاناً على قلوب البشر إلا قليلاً ممّن بلغنا شيء عنهم من هذا القبيل .

ساء ما يزيّن لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم من النسوة مع نصيبهم من الفقر والحمق فلو علم المعدم أنّ اليسار ليس محتكراً في بيوت معينة وأشخاص مختصة وإنما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة ، وأنّ قيمة كل امرئ ما يحسنه ، وان ليس عليه إلا أن يعمل بالمعروف عند قومه وبصبر قليلاً حتى يتاح له ما يقوم به شأنه، لما سهل عليه ان يقصف ما بيديه غصناً منه أنبتة الله ولا لذة أكبر من تربيته وتمييته .

ولو علم الاحمق انّ الفرار من توهم العدو نهاية الجبن وغاية الخذلان ويشمر أقصى درجات الخسران لرأي أنه جدير بالبكاء على حظه من ضعف النفس .

وهيات أن يكون قوم «خديجة» على هذا النمط من ضعف النفوس

وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام . وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها؟ وأتى يجد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الهرب، من غير ما طلب؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بها فلا يستطيع أحد انكاره لأنّ القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا إلى نفوسهم من شدة احتياجهم إلى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة . وليس معناه أنّ البنت تظل طول دهرها مكروهة او أنّ النساء لا قيمة لهنّ ولا قدر عند أولئك القوم. ما ذنب القوم اذا كان تفر من فقرائهم وحمقاهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا إلى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه؟ وما إجرامهم الى الانسانية من بعد أن يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى أباهنّ لو أدهن من الفقر؟

إنّ العرب كافة وقريشا خاصة كانوا يعزّون المرأة ولا يهينونها وقد أعطوا النساء كل مالهنّ من الحقوق في نظر العدل ولم ينسوا أنّ المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه إدراك وأنّ لهذا الانسان المؤنث نفساً كنفس ذلك الانسان المذكر تنضب وترضى وتنعم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقيهما .

وقد رووا لنا أنّ هنداً بنت عتبة وهي من قوم سيدتنا خديجة جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صفهما لي فقال « أما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابعتك، وان ملت عنه حطّ اليك، تحكمن عليه في أهله وماله، واما الآخر فموسع عليه،

منظور اليه في الحسب الحسيب ، والرأي الاريب ، مدره أرومته ، وعن عشيرته ، شديد النيرة ، لا ينام على ضمة ، ولا يرفع عصاه عن أهله « (1) فقالت يا أبت الاول سيد مضياع للحره فما عست ان تلين بعد إبانها ، وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشـررت ، وخافها أهلها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقيح عند ذلك دلالتها ، فإن جاءت بولد أحمقت ، وأن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه عليّ بعد . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريده ، الحره العفيفة ، وأني لاخلق مثل هذا الموافقة ، فزوجنيه ، فزوجها الثاني وكان هو أبا سفيان بن حرب فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني امية الشهيرة وأحد نجباء العرب ودواهيهم .

فهكذا كان مقام المرأة في قوم سيدتنا « خديجة » لا يفتات أهلها عليها في حقها وهكذا كان رأي ذوات الحجى والزكاة منهنّ .

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والأمر العمومية . وناهيك أنّ الحرب التي ظلّت مستمرة نحواً من أربعين سنة بين بني ذبيان وبني عيس لم يتفكر في اطفاء نارها إلا امرأة ولم تتمكن اطفائها إلا بما لها من المكانة وحسن الرأي وذلك أنّ ييهسة بنت أوس ابن حارثة بن لام الطائي لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المري وأراد أن يدخل عليها قالت التفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضاً تعني بني عيس وبني ذبيان فقال لها ماذا تقولين قالت « اخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع اليّ » فخرج وعرض الامر الخارجة بن سنان فاستحسن ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصلح ودفعا الديات من أموالهم

ص: 45

و حسبك من اشتهرن من العربيات في السياسية منهّن اللاتي كنّ من شيعة الامام عليّ (عليه السلام) ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشر الهمدانية، وبكاره الهالديه، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية، و امّ سنان بنت جشمه بن خرشه المدحجيه، و عكرشه بنت الاطرش بن رواحه، و دارميه الحجونيه، و امّ الخير بنت الحريش بنت سراقه البارقي . و أروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشميه .

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عيله فأذن لها فلمّا دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشره؟ قالت بخير يا امير المؤمنين . قال لها انت القائلة لايخك :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة *** يوم الطعان وملتقى الاقران

وانصر علياً والحسين ورهطه *** واقصد لهند وابنها بهوان

ان الامام أخوا النبي محمد (1) *** علم الهدى ومنازة الايمان

فقد الجيوش وسر أمام لوائه *** قدما بابيض صارم وسنان

قالت يا امير المؤمنين « مات الرأس، وبت الذنب، فدع عنك تذكّار ما قد نسي » فقال هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى » قالت « صدقت والله يا امير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام، ذليل المكان، ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخرًا لتأتم الهداة به *** كأنه علم في رأسه نار

وبالله اسألك يا امير المؤمنين اعفاني مما استعفيتّه » قال : قد فعلت فقولي حاجتك : فقالت يا امير المؤمنين « إنك للناس سيّد ، ولا مورهم

ص: 46

1- أخوة الدين

مقلد والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيصة ، ويسألنا الجميلة ، هذا ابن ارطاة قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فاما عزلته فشكرناك ، واما لا فعرفناك ، فقال معاوية « اياي تهددين يقومك والله لقد هممت ان اردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك فسكتت ثم قالت :

صلى الإله على روح تضمنه ***قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبني به تمناً*** فصار بالحق والايمان مقروناً

قال : ومن ذلك : قالت : علي بن ابي طالب رحمه الله تعالى : قال ما أرى عليك منه أثراً قالت : بلى أتيته يوماً في رجل ولاءه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائماً فانقتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فيكي ثم رفع يديه إلى السماء فقال « اللهم اني لم امرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقاك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيظُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ • إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتي يأتي من يقبضه منك والسلام » قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألى خاصة ام القومي عامة » فقال « ما

انت وغيرك» قالت « هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلاً شاملاً وإلا يسعني ما يسع قومي » قال اكتبوا لها بحاجتها

ووقدت بكاره الهلالية ايضاً على معاوية بعد موت عليّ (عليه السلام) فدخلت عليه وكان بحضرته عمرو بن العاصي ومروان وسعيد بن العاصي فجعلوا يذكرونه بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت أنا والله قاتلة ما قالوا وما خفي عنك مني أكثر فضحك وقال ليس يمنعنا ذلك من برك.

وكتب معاوية إلى عامله بالكوفة أن يوفد إليه الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وأن يوسع لها في النفقة علماً وفدت على معاوية قال مرحباً قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك؟ فقالت بخير يا أمير المؤمنين ثم قال لها ألسنت الراكبة الجمل الأحمر والواقفة بين الصفيين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك؟ قالت يا أمير المؤمنين « مات الرأس وبت الذنب، ولا يعود ما ذهب، والدهر ذو غير، ومن تشكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر » قال لها أتخفظين كلامك يومئذ؟ قالت « لا والله لا أحفظه » قال لكنني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه قالت « احسن الله شارتك وأدام سلامتك، فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه » قال « أو يسرك ذلك؟ » قالت « نعم والله » فقال « والله لو فؤاؤكم له بعد موته، أعجب من حكم له في حياته، اذكري حاجتك فقالت يا امير المؤمنين آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً . ومثلك من أعلى من غير مسألة . وجاد عن غير طلبه . قال صدقت وامر لها وللذين جاؤا معها بجوائز .

ووفدت عليه ايضاً ام سنان بنت جشمه، وعكرشة بنت الاطرش، ولما حجّ سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها إليه فقال لها « بعثت اليك لأسألك علام أحببت علياً وابغضتني ، وواليتي وعاديتني ؟ » فاستعفته فلم يفعل فقالت له « احبت علياً على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ، وطلبتك ما ليس لك بالحق، وواليت علياً على حبه المساكين، وإعظامه لاهل الدين، وعاديتك على سفكك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى» ثم قال لها : يا هذه هل رأيت علياً؟ قالت أي والله قال فكيف رأيتك قالت « رأيتك والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك » قال فهل سمعت كلامه قالت نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صداً الطست. قال صدقت فهل لك من حاجة قالت « نعم تعطيني مئة ناقة حمراء، قال ماذا تصنعين بها قالت أغذو بألبانها الصغار، وأستحي بها الكبار، واكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين المشائر » قال ، فإن أعطيتك ذلك فهل أحلّ عندك محل عليّ بن ابي « طالب : قالت « سبحان الله أو دونه » فقال «اما والله لو كان عليّ (عليه السلام) حيّاً ما أعطاك منها شيئاً » قالت لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين».

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت عليه أروى بنت الحارث وجرى لها معه حديث من مثل ما تقدم .

فهكذا كان مقام المرأة العربية، من أخوات سيدتنا القرشية، وهكذا كان حظهنّ من الفصاحة والحصافة ، ومبلغهنّ من المشاركة في الامور العمومية والاخذ بالاسباب ، والمشايعة لبعض الاحزاب، وما أتينا إلا باليسير توطئة لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها

الفصل الخامس -مقام خديجة ، عند قومها

ما اكرم هذا المقام !واني بليغ لا تأخذه الهيبة اذ ادعي لتصور هذه المنزلة ؟

سيدة بطلعتها الفخامة والشرف يتجليان ، والجمال والكمال يتألقان

ومزايا كالزهر تفحاً وطيباً***وكزهر السما بهاءً ونوراً

من شرف حسب ، إلى كرم محمد ، إلى سؤدد قبيل ، إلى عن عشيرة ، إلى جمال ذات ، إلى كمال صفات ، إلى فضل حجي إلى طهارة نفس ، ذلك ما كانت تزين به سيدتنا « خديجة » وذلك ما كانت تحلّ به بين قومها في المكانة المالية والمقام الكريم .

هذه المزاي ليست بالبدع من الاشياء ، ولا نبأها بغريب من الانباء ، بل هي معهودة في كثير من النسوة ، ومع ذلك لم يكن لاسمهنّ نصيب بغير الخمول ، قد طويت أعلامهنّ ، ولم ينشر ذكرهنّ ، ولم يسمّ في أقوامهنّ مقامهنّ ، فكيف تسامي اسم « خديجة » وعلت منزلتها ؟

إنّما كان لخديجة ذلك الشرف بشيء آخر غير مزاياها ، ذلك الشيء هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة أذواقهم وحسن انتظام مجتمعهم. وليس بكاف لتعالي امرىء أن يكون كاملاً بل بدمع ذلك من احاطة قومه علماً بفضائله ووجود ميل فيهم للفضائل والكمال ومن المشهوران الحجارة

ص: 50

الكرامة عند من لا يعرف مزيته لا قيمة لها وهي عند عارفيها فوق القيم فالحق أن ارتفاع من يستحق الرفعة في قوم ليس دليلاً على فضله وسعادة جده وحده بل هو دليل أيضاً على فضل أولئك القوم وسعادة جدهم ، فقد ربح قوم كان للافاضل منزلة كريمة لديهم ، وخسر قوم لا يعلو بينهم إلا من استمان بجيش من الحيل والخداع ، وحواشٍ من النقائص المتغلبة على الطباع ،

وإذا كنا معجبين بالسيدة «خديجة» لوفرة مزاياها الشريفة فنحن بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد إعجاباً . وليست «خديجة» وحدها هي التي نالت مقاماً كريماً في قريش بل كثير من فضليات نسائهم نلن المقام الكريم فيهم وكان لكثير منهن آثار مشكورة في مساعدة الاسلام الذي نقل العرب وغيرهم إلى أعلا مما كانوا فيه ولم يستطعن ذلك إلا بمالهت من القدر الذي يليق بانسان ذي رأي معدود، وعقل مذكور ، ونفس مشابهة وحسبك من هذا ان ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب ابا العدل و ابا الفتوح و ابا السياسة و الادارة لم يكن اسلامه إلا بمحاورة سيده من اولئك السيدات القرشيات هي اخته فاطمة زوجة ابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

نحن نعلم أن أكثر الناس يمرون بالمزية يعهدون أمثالها فلا يلتفتون اليها مالم تكن رائعة وفوق ما اعتادوا وهذا عندنا ضارٌّ لأنّ فيما يعهدونه ايضاً ما يستحق الالتفات اليه ، ويغري بالانتفاع منه إن كان مفيداً، والتغافل عن الانسان المفيد اذا لم يكن فوق العادة يوصل الى الحرمان البتة من ذلك الرائع المنشود ، والسامي الذي هو فوق المعهود

ولا يشكّن القارىء في أنّ كثيراً من الاشياء التي صرفتنا الالفة عن إجلال شأنها هي في جلاله الشأن عند الامعان فوق ما تتصور. وفي كثير مما لا تتفكر فيه منها ما تخر الافكار صاغرة أمام زاخر فوائده وباهر أسراره فلذلك أحببنا أن نمر بقارتنا مرة في تفصيل جملة تلك المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لأنه ربما اختلج في صدره التعجب من إكبارنا شأن مزايا معهودة في كثيرين وقد يكون قارئنا من حزب الاكثرين الذين لا يبالون بالمعهودات ، ولا يطربون بغير الغرائب .

نعم ، نعم نحن لم نطرف بما فوق المعهود ، ولم نُهدر ما وراء المشهود ، ولا عذنا بمبتدعات التصور ، ولا لذنا بغرائب الحوادث ، وشواذ المصادفة و خوارق العادة ، ولم تمت إلى افئدة القراء إلا بمعروف له أمثال ، ومألوف لا تضيق بتصديقه الافكار ، ولكن الأمر عندنا في هذه المعهودات على ما قلنا . واذا ثبتنا اليها بنظر الإمعان غير وسنانه عين بصيرتنا ألقينا فيها عند سأم النفس من لذة الحس ، أعظم ما تتوق اليه من لذة التصور وفائدة الإدراك .

واذا كانت الحياة واحدة كان جديراً بنا أن نقف متذكّرين هذه الوحدة ابدأً أمام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار ولم يكن حسناً بنا أن ننسى أحاسن ما تلده لنا هذه الامم من الصور التي لا تحصى .

ما اتنا بتذكرنا من سادوا وشادوا ، وتذكرنا من صلحوا وأصلحوا ،

وبتذكرنا من أوجدوا وابتدعوا نتذكر تاريخ امنا الحياة وترتاح نفوسنا باستجلاء أحسن صورها ، وتتوارد عليها اللذة باشتياقها الى نصيب من ثروة تلك الامم التي جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا أصحاب تلك المظاهر ولابسي تلك الصور ، ولم لا نتوق الى حديث ذلك التراث وهو يملأ كمنوراً ان عجزت أفكارنا ان تحيط بكنهه جواهره مخبراً فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيانها والامل ببلوغ ما تميل اليه النفس منها .

الفصل السادس - فضائل (خديجة) والفضائل عند قومها

تبارك واهب الحياة ، فقد أبدع لنا في «خديجة» المثال الاسنى منها ، وأطلع لنا في شخصها زواهر الانسانية الفضلى ، وبنور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في الافق الأعلى ، وتربيتهم الادبية والعقلية في المنزلة العليا .

نحن معشر بني الحياة متفاوتون كثيراً في قوى النفوس وأكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ منقوص النصيب من القوى التي تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة لصاحبها وغيره وقليل منا من رزقوا فضلاً من هذه القوى النافعة الآتية بالغبطة والحبور . ولدى التأمل نجد استعداد فطرة الشخص هو الاساس في حسن الحظ من هذه القوى النافعة ثم للتربية دخل كبير فإذا اجتمع في الشخص استعداد حسن وتربية حسنة كان حظه عظيماً من

فضائل النفس وقد اجتمعا في «خديجة» فرأينا في سيرتها ذلك المثل السني ، والكمال السمي .

عرفنا حسن استعدادها لأنّ التربية وحدها لا تفعل شيئاً في جوهر النفس إذا كان غير صالح لفعلها، كما لا يصلح الماء، لأنّ تطبع فيه ماتشاء ، وعرفنا حسن تربيتها لأنّ الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه إلى المرغوب في المجتمع .

ومن حسن استعداد هذه السيدة وحسن تربيتها عرفنا شيئاً آخر جديراً بالتنويه وقلما رأينا من توّه به او التفت اليه فلذلك عنينا به نحن كثيراً في صدد هذه السيرة وهو ارتقاء قوم «خديجة» ارتقاء عظيمًا فإنّ التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العمومية . والمجتمع غالباً أشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولا ومردوداً ومسكونا عنه . وتشتهر المقبولات حتى يطلق عليها اسم المعروف، والمردودات حتى يطلق عليها اسم المنكر ، ويضطر الناس إلى تمرير تربية عمومية هي اذ لا يخالف المعروف ولا يوافق المنكر، ويبقى للناس سبغ في المسكوت عنه من الاشياء حتى يرى كل منهم رأيه فيها ، فهذا يستحسن شيئاً حتى يوجبه على نفسه ، وذاك يستقبح شيئاً حتى يحرمه عليها. وأعقل الناس في هذه الاشياء المسكوت عنها من جعل المعروف والمنكر معياراً لها في كل ما قرب من المعروف كان حسناً ويكون وجوبه على حسب درجة قربه من المعروف، وكلّ ما قرب من المنكر كان مستردلاً ويكون حظره على حسب درجة قربه من المنكر. والاصل في المنكر هو الاذى والعدوان، وعليه قيس الاصل في المعروف قياس الضد فالاصل فيه العدل والاحسان .

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات في التربية وعليهما تشاد الاعمال فيها .

وأى باحث لا تأخذه هيبه إذا اطلع على ما كان لقوم «خديجة» من التعمق في دقائق هذا الفن من حيث النظر، وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل ، أي والله ان هؤلاء القوم النازلين في ذلك البلد الصغير البعيد ، واخوانهم الآخرين الضارين في تلك الفيافي، يدهش المطالع ما يراه لهم من الباع الطويل في فن التربية على مقتضى مجتمعهم ذاك . فتراهم مثلاً لما كانت السماحة ضرورية ولا سيما لذلك الاجتماع جعلوها في المقام الاول ولم يألوا يطبعها في النفوس حتى نبغ فيهم أجواد بلغوا بهمتهم في الجود الكواكب وازيئت الارض بمناقب هممهم ، وايثار اخيهم الإنسان على انفسهم، كما فعل كعب بن مامة الذي أثر رفيقه بمائه ومات هو عطشاً .

ولما كانت الشجاعة ضربة لازب لكل شخص وكل جماعة في كل زمان وكل مكان تجدهم جعلوها شعارا لمحامد و تاج المناقب وسيروا فيما ضربوه من الامثال قولهم «الشجاع موقى، والجبان ملقى» وكانوا يتمادحون بالموت قتلاً ويتهاجون بالموت على الفراش ولما بلغ عبدالله بن الزبير - وهو ابن أخي خديجة - قتل أخيه مصعب خطب فقال « إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه اننا لا نموت حتفا ولكن قطعاً بأطراف الرماح وموتاً، تحت ظلال السيوف وان يقتل المصعب فإنّ في آل الزبير خلفاً منه ، ذلك لأنهم كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ويرون الحياة الرذيلة معرضة للعدم أكثر من الحياة الشريفة ولمثل هذا يقول علي ابن أبي طالب (عليه السلام)«بقية السيف أنمي عددأ، وأطيب ولدأ» وتقول الخنساء وهي احدى الشهيرات في العرب:

ص: 55

نهين النفوس وبذل النفوس***س يوم الكريهة أبقى لها

لا يستكرنّ احد اذا قيل له إنّ الشجاعة -وهي السجبة التي لا ترقى الامم إذا خلت منها- كانت في العرب من الاخلاق الفاشية التي لا يعتدّون بأحد منهم ما لم تكن فيه وقد سهل على نفوسهم انطباع هذا الخلق فيها لأنّ أكثر شيء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجعان واقدامهم في الشدائد حتى فضلوا، والجنباء واحجامهم فيها حتى رذلوا، وهنالك من الشعر في الشجاعة والشجعان ما يفعل في النفوس فعل السحر فيستنزلها من الخوف على الحياة والهرب بها الى الخوف على الشرف حتى تهون النفوس في سبيله كقول عنتره وهو أحد مشهوري شجعانهم:

بكرت تخوفني الحتوف كأثني***أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها ان المنية منهل***لابدان أسقى بكاس المنهل

فاقني حياء لا ابالك واعلمي***أني امرؤ ساموت إن لم أقتل

وقد يظن ظان أنّ شجاعة العرب وبأسهم لم يكن إلا فيما بينهم ومثل هذا الظنّ من قلة الاطلاع على جملة أخبارهم فنحن لا نريد أن نأتي بآية على شجاعتهم مما فعل هؤلاء القوم بعد إسلامهم فإنّ ذلك مشهور ولكن حسبنا أن ندل القارئ على ما كان من بأس العرب يوم ذي قار اذ أراد كسرى أن يوقع سوءا ببني بكر بن وائل لسبب لا محل لتفصيله فجهز عليهم جيشاً كثيفاً ليهلكهم به وبلغهم خبره فتجهزوا له واعانهم قبائل أخرى فتوافوا بواد اسمه ذوقار وكانت الهزيمة على جيش كسرى حتى تبعهم العرب إلى داخل البلاد الفارسية وهي واقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل في كسب الفخار، وحى الذمار، واتقاء العار،

وفي هذه الواقعة يقول الاعشى اعنى بني بكر :

و جند كسرى غداة الخوصصبحهم *** منا غساريف ترجو الموت وانصرفوا

لقوا ململمة شهباء يقدمها *** للموت لا عاجز منا ولا خرف

فرع نمته فروع غير ناقصة *** موفق حازم في أمره أنف

فيها فوارس محمود لقاؤهم *** مثل الاسنة لا ميل ولا كُشف

لما رأونا كشفنا عن جماجمنا *** ليعلموا أننا بكر فينصرفوا

قالوا البقية والهنديّ يحصدهم *** ولا بقية إلا السيف فانكشفوا

لو أن كل معَدٍ كان شاركنا *** في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم *** ملنا ببيض لمثل الهام تختطف

إذا تطفنا عليهم عطفة صبرت *** حتى تولت وكاد اليوم ينتصف

بطارق وبني ملك مرازبة *** من الاعاجم في آذانها الشُّف

من كل مرجانة في البحر أحرزها *** تيارها ووقاها طينها الصدف

كأثما الآل في حافات جمعهم *** والبيض برق بدا في عارض يكف

ما في الخدود صدود عن سيوفهم *** ولا عن الطعن في اللبّات منحرف

وفي هذه الواقعة يقول العدلي بن الفرج العجلي :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة *** إلا اصطلينا وكنا موقدي النار

وما يعدون من يوم سمعت به *** للناس أفضل من يوم بذى قار

جننا باسلا بهم والخيل عابسة *** لما استلينا لكسرى كل أسوار

وفيها يقول شاعر آخر من بني عجل

إن كنت سافية يوماً ذوي كرم *** فاسقي الفوارس من ذهل بن شيبانا

واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم *** واعلي مفارقهم مسكا وريحاناً

وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية أكمل مظهر وكان المنذر لهم بنية كسرى وعزمه لقيط الايادي اذ كتب الى بني شيبان يخبرهم بذلك في شعر مشهور غاية في البلاغة والتحميس واستثارة العزائم وفيه يقول :

قوموا جميعاً على أمشاط أرجلكم *** ثم افزوا قد ينال الامن من فزعا

وقلدوا أمركم لله دركمو *** رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفاً أن رخاء العيش ساعده *** ولا اذا عض مكروه به خشما

مازال يحلب هذا الدهر أشطره *** يكون متبعا طورا ومتبعا

حتى استمرّ على شزر مريرته *** مستحکم الرأي لا فعما ولا ضرعا (1)

وليس يشغله مال يئمره *** عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا

فعلى مثل ما ذكرنا كان نصيب العرب عامة وقبيلة خديجة خاصة من الشجاعة التي لا قوام الامم بدونها وكانوا لا يعتدون بالجبان ولا يعدونه شيئاً مذكوراً . ينبئك بذلك قول احد شعرائهم

خرجنا نريد مغاراً لنا *** وفينا زياد ابو صعصعة

فستة رهط به خمسة *** وخمسة رهط به أربعة

ثم لم يكن نصيب قوم «خديجة» في فقه النفس والحكمة والمعارف بأقل من نصيبهم العظيم في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها من غير كتب وكان لهم المام قليل بحركات الكواكب والانواء التي

ص: 58

1- المريرة طاقة الحبل والحبل الشديد القتل. والشزر و الفتل عن اليسار والمعنى استحکم امره وقويت شكيمته ، والفحم الرجل الهرم والضرع الضعيف

تتبعها . وهو يقتضي شيئاً من معرفة الحساب وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب و حفظ الصحة سواء كان طب الانسان او طب الحيوان . والطب يقتضي ايضاً نصيباً من علم الخواص التي اودعها البارى في المعدن والنبات والحيوان . اما معرفتهم بالاخبار اي التاريخ فحدث عنها ولا حرج وكانوا يعبرون عن هذا العلم يعلم النسب فإنّ علم النسب في الحقيقة ليس عبارة عن معرفة نسب الاشخاص والقبائل فإنّ هذه معرفة بسيطة لا تستحق أن تسمى علماً وإّما كان النسابون يعرفون أخبار أولئك الاشخاص وأخبار تلك القبائل وهذا هو التاريخ وربما كان السبب في اشتهاار هذه المعرفة باسم علم الانساب أن عارفي الاخبار كان إليهم المرجع في معرفة الانساب التي من أهم فوائدها معرفة تفريع القبائل وإلحاق الفروع بأصولها على شدة البعد بين الاصول وتلك الفروع أحياناً . وقد كان منهم اختصاصيون بهذا العلم يلقون منه على من يتحلّقون حولهم . قال رؤبه بن العجاج قال لي النسابة البكري «يا رؤبة لملك من قوم ان سكت منهم لم يسألوني وان حدثتهم لم يفهموني» ، يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقي هذا العلم حق الرغبة قال رؤبة فقلت له : إني أرجو أن لا اكون كذلك . قال فما آفة العلم ونكرته وهجنته ؟ قلت : تخبرني : قال « آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجنته نشره عند غير أهله »

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب العربي من الانصباب على حفظها ودراسة الكلم الجوامع فيها مبلغاً عظيماً ويمكنني أن أقول إنّها من أشهر ما اشتهر عنهم .

وهل يجد الباحث معنى من المعانى التي مخطر للنفس فيها الاستحسان

أو الاستهجان الـاـ ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وإبرازه بأبداع حللة ولا ينيك ببعض ذلك شيء كالمأثور من كلمهم الجوامع التي سارت مسير الامثال ، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الاقوال، ولا نستطيع أن نأتي هنا بقليل من ذلك الكثير لكيلا تبعد بالقارى، عن سياق السيرة ولكننا نذكر خبراً واحداً يدل على مقدار عناية العرب بتذاكر الحكم والآداب، وصياغتها بأبداع البيان، ومقدار ما وسعت منها تلك الافكار. ذكروا أن عمرو بن الطرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي اجتمعا عند ملك من ملوك حمير فقال: تساءلا حتى اسمع ما تقولان. فقال عمرو لحممة أين تحب أن تكون أياديك؟ قال « عند ذي الرتبة العديم ، وعند ذي الخلعة الكريم والمعسر العديم ، والمستضعف الحليم » قال : من احق الناس بالمقت؟ قال « الفقير المختال » والضعيف الصؤال ، والغني القوال ». قال فمن احق الناس بالمنع ، قال « الحريص الكاند ، والمستמיד (1) الحاسد والمخلف الواجد » قال من أجدر الناس بالصنعة؟ قال « من اذا أُعطي شكر ، واذا مُنع عذر ، واذا مُطل صبر ، واذا قدم العهد ذكر » قال من أكرم الناس عشرة؟ قال « من اذا قرب منح، واذا ظلم صفح، وان ضويق سمح « قال من ألام الناس؟ قال « من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ، واذا ملك كنع (2) ، ظاهره جشع، وباطنه طبع «(3) قال فمن أجل الناس؟ قال « من عفا اذا قدر ، وأجمل اذا انتصر ، ولم تطفه عزة الظفر » قال فمن أحزم الناس؟ قال « من أخذ رقاب الاسود بيديه ، وجعل

ص: 60

1- المستמיד هو المستعطي

2- معنى كنع هنا انكمش

3- الطبع بفتحيتين هو الدنس

العواقب نصب عينيه ، ونبذ النهيب دبر أذنيه « قال فمن أخرج الناس؟ قال «من ركب الخطار، واعتسف المثار، وأسرع في البدار قبل الاقتدار (1)» قال من أجود الناس؟ قال «من بذل المجهود، ولم يأس على المفقود» قال فمن أبلغ الناس: قال: «من حلى المعنى العزيز، باللفظ الوجيز، وطبق المفصل قبل التحزير» قال من أنعم الماس عيشا قال «من تحلى بالعفاف، ورضي بالكفاف، وتجاوز ما يخاف الى ما لا يخاف» قال فمن أشقى الناس؟ قال «من حسد على النعم، وسخط على القسم، واستشعر الندم، على ما انحتم» قال من أغنى الناس؟ «قال من استشعر الياس، وأظهر التجمل للناس، واستكثر قليل النعم، ولم يسخط على القسم» قال فمن أحكم الناس؟ قال من صمت فاذكر، ونظر فاعتبر، ووعظ فازدجر» قال من أجهل الناس؟ «قال من رأى الخرق مغنما، والتجاوز مغرما».

وما ذكرناه من جهة معارف القوم الذين نشأت منهم هذه السيدة كاف في الدلالة على أنه كان من جملة ما يعنون به من التربية تثقيف ناشئتهم بما عندهم من المعارف على الطريقة التي ألفوها وتعودوها في التعليم وهي الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعاريف والتفاصيل التي يحتاج إليها نفر قليلون ويستغني عليها الآخرون. ولكل فرع أهله الذين بهم استعداد لالتقاطه بسهولة ولا يكلف البليد في شيء ان يكذب في تفهمه مدرسته، أو ينفى في حفظه ذاكرته، أو في توسيعه مخيلته .

ثم قد كان مما عني به العقلاء من رهط خديجة التربية على العدل ولقد اسلفنا شيئا عن ولعهم به وحرصهم على حماية المظلوم ووقاية المهضوم

ص: 61

وكذلك ولعوا بتمداح العفاف وتشريف الاعفاء والمفانف، واجلال الطهارة وأهلها وكان من أكرم ألقابهم وأجلها لقب الطاهر والطاهرة وقد حازت السيدة «خديجة» هذا اللقب الشريف باستحقاق إذا كان يقال لها «الطاهرة».

فإذا عرف المطالع الكريم انّ لهؤلاء القوم حظاً كبيراً من هذه الاشياء التي هي أصول الفضائل نعني السماحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفف كان جديراً به أن لا ينظر إلى صفر شأن ذلك المجتمع إذا قورن ببلاد الحضارة فإنّ الفضل الانساني الممنوح من يد الفاطر المبدع لا يتوقف على زخرف البيوت وكثرة الدور في البلد الواحد بل يصل ذلك الفضل بإرسال رباني من يده سبحانه الى الذرات الصغيرة التي في الأدمغة ويختص به سبحانه أفراداً ممن عنوا بتوجيه العقول والقلوب إلى تصفية النفس وتركيبته من النقائص وتحليلتها بالفضائل ممن لم يجعلوا أكبر همهم تجويد المأكل والملبس والمسكن والفراش . فإذا كثر من هؤلاء الافراد في أمة ظهرت وان حل الخفاء بهم، واستوفت وان بخس الوزن لهم ، ولم يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانساني من الاحسان الرباني قليلين في قوم « خديجة » الفاضلة بل كانت كثرتهم خير مقدمة لخير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي كان من أكبر مميزات جماعته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اولئك الذين وافاهم الوحي ينعثهم بما هم أهل قائلوا- «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ».

ص: 62

الفصل السابع - جمال خديجة والجمال عند قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع، ومحبوب لفائدته عند العقل، ومع كثرة ما ألفت العيون رؤيته، والأذان سماع أحاديثه، لاتزال أسراره موضوع التفكير، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب، كيف لا وهو السر الأعظم في جذب الانسان إلى مقاماته العلى من الابداع، والسبب الاكبر في ابعاد ما بينه وبين الحيوان في مراقي الوجدان والادراك، فشرفه مجمع عليه عند بني آدم بغير خلاف بينهم. وايما قوم حرموه فقد باؤا بحرمان عظيم. ولذلك لم نجد بدأً عن ذكر هذه المزية الاخري لقوم «خديجة» فإنها مزية جديرة بالذكر لا سيما بعد أن اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم أنهم كانوا لا- حظ لهم من الجمال، ولا- ذوق لهم في الحسن، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن .

كبرت سبباً أن يكون قوم «خديجة» على ما يظن هؤلاء الذين لا يتالف في ذهنهم أن يكون القوم سكان اقليم حار وذوي شظف من العيش ثم يكونوا مع ذلك ذوي خلقة جميلة وصورة بديعة .

وكبر مآ تقصيراً أن لا- نبين في هذا الباب ما هو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها فإن استغرب قوم لم يعيروا اسرار الخليقة نظرة تخصيصنا فصلاً لهذا الموضوع فإنهم سيرونه فيما بعد مكيناً في موضعه على أنه سيجد فيه المتفكرون صاحبهم الانيس ويجد هو فيهم أهله الكرام

ان العرب قد تناسبت أجزاءؤهم، وتناسقت أوضاعهم، واعتدلت أشكالهم، بياضهم جميل، ليس فيه بهق بعض الاجيال، وأدمتهم لطيفة، .
ليس فيه حلكة بعض الاقوام، ولعلّ من فازت من حساتهم بنخط عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين، وتكون آية المنتهى في
جمال العالمين،

والمشهور أنّ الجمال يختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أعمق بما يتناقله الكل
من صفات الحسن يجد ثمة جهة جامعة ومقياساً واحداً تتفق معه المقاييس كلها وذلك أنّ الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الاديم
إنّما هو باعتدال القامة، واستواء الهامة، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطععه، وحلاوة المبسم، وملاحة العينين، ولطف الحاجبين، ورقة
الشفيتين، ولعلّ هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر أن تجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهوريههم ومشهوراتهم. وإذا
اضيف إلى ما ذكرناه بياض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلاً في الجمال، قد يبلغ به منتهي الكمال، ولم يكن هذا اللون قليلاً
في العرب عامة وقوم خديجة خاصة .

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما أكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيراً: البياض المشرب
بحمرة او البياض الغارب إلى صفرة وقال ذو الرمة أحد شعرائهم:

بيضاء صفراء قد تنازعا *** لوان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القرآن المجيد تشبيه حسان

الجنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد إلى عهدنا هذا في أنّ هذا اللون هو الذي تكون صاحبه أقرب إلى الكمال في الجمال إذا أخذت بحظ من تناسب بقية الاوضاع ، فإنه عند ما ينطبع فيه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حمرة أطف من الحمرة الملازمة لبعض البيض وعن مثل هذا عبر عدي بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرة خلط صفرة في بياض *** مثلما حاك حائك ديباجا

ولكثرة البياض اللطيف في العرب شبهوه بالصبح واشتقوا من الصبح لوناً فقالوا للابيض صبيح، واشتقوا من الزهر لوناً فقالوا للأبيض المشرب بحمرة أزهر. وتشبيهم بورد الخدود دليل على كثرة هذا اللون فإنّ هذه الحمرة لا تنطبع إلا على أديم أبيض ورأيانهم يشبهون الاعناق كثيراً بأباريق الفضة كما قالت قريبة بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها .

وليس بمجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغري القلوب بمجالي تجلياته ، منصرفي الوجوه إلى مشارق أنواره ، ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجدنا حبّ الجمال قد لطف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان ، ونقلهم من حال إلى حال ، إلى أن تهيأوا لقبول الدعوة التي رقت بهم من هذا الجمال إلى أعلى ، ومن هذا الغرام إلى ما هو أولى، نقلهم إلى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال، وركت بهم إلى عشق الكمال المعنوي الذي هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك

الذين شغفهم الجمال المحسوس، أن يفهموا الجمال المعقول ، وأن يزدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذلك ولم يمنّ عليهم أن ينتقلوا إلى العالم الجديد الذي دعوا اليه لأنه تبدّى لهم أجمل مما كانوا عليه .

ونحن إذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشغف بالحسن والاستحسان يزيد قدرهم في اعتقادنا ونرى من غير تردد أنّهم كانوا لذلك العهد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف ، وعدم نطقهم بكل أسباب الحضارة، ولعلنا إذا بحثنا عن المؤثر الاعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لأنهم خصوا بأخذ المعتدل من المعاش، والتنقل في المعتدل من الاقاليم، وحبّ إليهم المعتدل من المهن والاعمال ، وأضافوا إلى ذلك أنّهم لا يتزوجون من غير رؤية غالباً وللانتخاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل .

وإن بدا لأحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها سماعاً نجده لا يقصر في البحث والتدقيق بواسطة من يثق بحسن ذوقهنّ ، وجودة امعانهنّ والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال :

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كندة جد امرى القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم (الذي يقال فيه لاجرّ بوادي عوف لافراط عزّه) وكانت ذات جمال فوجّه إليها امرأة يقال لها عصام لتنظر إليها و تمتحن ما يلفه عنها فلما رجعت قال لها الملك « ما وراءك يا عصام » .

قالت : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك ، إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته خلته عنا قيد كرم جلاه الوابل، ومع ذلك حاجبان

كأنهما خطا بقلم ، أوسودا بحجم ، قد تقوسا على مثل عين المبهرة ، التي لم يرعجها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحذاء سيف المصقول ، لم يخاس به قصر ولم يمض به طول حفت به و جنتان كالارجوان ، في بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم ، فيه ثنانيا غرر ، ذوات أشر ، يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، يلتقى بينهما شفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقا كالشهد ، تحت ذاك عنق كإبريق الفضة ، ركب في صدرها تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممثلتان لحماً ، مكتنزان شحماً ، وذراعان ليس فيهما عظم يمس ، ولا - عرق يجس ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما ، تعقدان شئت منهما الانامل ، تتأفي ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يحرقان عليها ثيابها - إلى أن قالت حين انتهت إلى وصف ساقها - وشيتا بشعر أسود ، كأثه حلق الزمرد ، يحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، - فتبارك الله مع صغرهما ، كيف يطيقان حمل ما فوقهما ، « ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول بعضهم من قصيدة

ويزين فوديتها إذا حسرت *** صافي الغدائر فاحم جعد

فالوجه مثل الصبح مبيض *** والفرع مثل الليل مسود

وجبينها صلت وحاجبها *** شخت المخط أزج ممتد

وكأثها وسنى إذا نظرت *** أو مدنف لما يفق بعد

فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لرهط خديجة حظ منه كبير ولم يكن حظها هي منه قليلاً

الفصل الثامن - ثراؤها والثراء عند قومها

وكان للسيدة « خديجة » مع ما آتاها الله من الجمال وفضائل النفس حظّ من الثراء ايضاً وثراؤها في حياة أبيها وكانت تاجرة ولعلّ اباهما نحلها رأس المال باديء بدء .

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئاً يعجب منه في قومها فإنّهم كادوا يكونون كلهم تجاراً . تقضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد، وشريعة تربيتهم على طلاب المجد واتساع السؤود ، ومنافسة الاقرب والأبعد، ولولا شغفهم بهذا لما سمعنا بصدى همّتهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين . ولولاه لاستطلبوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئى عن طعامهم في البادية فقال لسائله : « يخ يخ عيشنا عيش تعلل جاذبه (1) وطعامنا أطيب طعام واهنؤه وأمرؤه ، القت (2) والهبيد (3) والصليب (4) و العلهز (5) والذآنين (6) والعراجين (7) والضباب (8) واليرابيع (9) والقنفاذ (10) وربما أكلنا والله القدّ (11) واشتوينا الجلد ،

ص: 68

- 1- تعلل من العلل وهو الشرب بعد الشرب
- 2- القت الفصفصة وهي الرطبة من علف الدواب
- 3- الهبيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طبخ يؤكل عند الضرورة
- 4- الصليب الودك يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها
- 5- العلهز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في المجاعة من الوبر والدم
- 6- الذآنين جمع ذؤنون نبت طويل ضعيف له رأس مدور
- 7- العراجين جمع عرجون العود من النخل
- 8- 10 الضباب و اليرابيع والقنفاذ حيوانات معروفة
- 9- 10 الضباب و اليرابيع والقنفاذ حيوانات معروفة
- 10- 10 الضباب و اليرابيع والقنفاذ حيوانات معروفة
- 11- القد جند السخلة

فما نعلم أحداً أخصب منّا عيشاً، ولا أرخى بالاً، ولا أعمر حالاً، أو ما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً برقيق العيش ولذيذه :

إذا ما أصبنا كل يوم مُدَيِّقَةً (1)*** وخمس تميرات صغار كوانز

فنحن ملوك الناس خصباً ونعمة*** ونحن أسود الناس عند الهزاهز

وكم متمنّ عيشنا لا يناله*** ولو ناله أضحى به حق فائز

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة، ورزق من السعة، وإياه نسأل تمام النعمة

هذا ما استطابه الاعرابي وحمد الله عليه هذا الحمد. وما الاعراب إلا بشر قد يستطيب غيرهم من البشر ما يستطيعون إذا خلصوا إلى مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة ما يقيم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات بل يتسابقون إلى ما به الغبطة من الفتيات، والذخائر، ويتبارون في ما به التمايز من المستحسنيات والبدايع، ويمثل هؤلاء يزيد الله الانسان بسطة من المعارف، وقوة في المدارك .

وقريش كما عرف القاريء كانوا ممن أعدّهم الله لعمل عظيم في الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه ما لم يكن في سابق تربيتهم و طرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأنفونه وما أمامهم إلا المغامرة في السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لائقاً بمن هم عتيدون لمثل ذلك ان يقبعوا في بلدهم ولا يعرفوا العالم، ولا تميل نفوسهم إلى خيرات السماء والأرض الفائضة في ملك الله الواسع، بل اللاتق

ص: 69

1- المذيقة تصغير مذقة وهي شربة من اللبن الممزوج بماء كثير

بهؤلاء أن يكون كل واحد منهم أنطق بحاله يقول ذلك الشاعر من أبناء ملوك العرب (امرء القيس)

فلو أنّ ما أسعى لأدنى معيشة***كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكّما أسعى لمجد مؤثّل***وقد يدرك المجد المؤثّل امثالي

و حقا كانت حال القرشيين ناطقة بمثل هذا الكلام ، وكلّ منهم له في المجد أرب، فلا بدع إذا انصرفت أنفسهم إلى تحصيل المال فإنّه أعظم أدوات هذا المطلوب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونقعوا بانعني قومهم عند الشدائد منهم عبد الله بن جدعان الشهير بجفنته التي كان يقدمها للفقراء والمساكين من زوار مكة وأهلها وقد أمد قومه بالسلاح في حرب حاربوها وساح مئة كمي من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل أحد الخوة السيدة « خديجة » العوام ابو الزبير (1) ومنهم أمية بن خلف ابن وهب وابنه صفوان الذي أثر عن النبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أنّه قال فيه « إنّ صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه» أي بلغ ماله القناطير (2) وكثيرون غير هؤلاء

فيالله ما أشبه قريشا الضاريين في أغوار رمال العرب وأنجادهما لنقل المتاع من هذه البرية وإليها على مراكبهم سفن البر ، بالفينيقين الضاريين

ص: 70

- 1- تحاربت في هذه الحرب قريش وهوازن وكان عمر النبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فيها اربعة عشر عاماً وحضرها مع اتمامه بهي لهم النبل. وعبدالله بن جدنان سري شهير ومثر كبير وهو من جحد بني جمح
- 2- أمية من جحد بني جمح أيضاً وقد قتل في وقعة بدر وكان مع أعداء النبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) اما بينه صفوان فاسلم بعد فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

في أكباد تلك المياه وأطرافها لتقل البضائع من هذا الثغر إلى ذلك على مراكبهم قلائص البحر . فلئن كان لأبناء تلك السواحل رحلنا شتاء وصيف بين زئير الامواج ، ومعاركة الامواه، فلأبناء هذه البراري أيضاً رحلتنا شتاء وصيف بين عواء السباع ، ومعالجة الرمال .

لعمر الحق قد أدرك القوم ان الخير كل الخير لأنفسهم وبياراتهم انما هو في أن يخفوا للتجارة لأنها في الامم أقوى الاسباب المقربة من البدائع ، المبعدة عن الحياة الوحشية ، فقاموا بهذا المرغوب غير كسالى فكان لذلك ربهم عظيماً من المال ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في ذلك العصر السحيق والمكان البعيد. وكان بلدهم على هذا البعد عن العمران المتصل وسطاً صالحاً للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت تحجه العرب إلى البيت المعظم الذي فيها وجدير ببلدة يحج إليها العرب ذلك الحج ان تكون للأمن داراً ، وإنما تبقى شجرة التجارة في رياض الامن .

وكانوا يقيمون من حولها أسواقاً مؤقتة في العام قبيل أيام الحج ويفدون إليها لبيعوا ويشروا . أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه «ذو المجاز» وهو عند عرفات و «مجنّة» وهي موضع باسفل مكة و «بدر» وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان السوق عكاظ من خطير الشان ان النعمان بن المنذر ملك الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام الى سوق عكاظ جمالاً محملة بزّاً وطيوباً لتباع في هذه السوق ويشرى له

بشمنها من آدم الطائف (1) ما يحتاج إليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب .

وهذا يدلنا على أنّ تلك البلاد لم تكن تأتي بالحاصلات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج إلى غيرها حاصلاتها أيضاً ومع أنّ الشام مشهورة بأعنايبها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون إليها من زبيب الطائف ذلك الزبيب الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأى يباده فقال : لله در قيس في أي عش أودع فراخه : يريد يقيس ثقيفاً فكذلك كان اسمه وحسبك ان النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغي الاحمال الى الشام والى غيرها أحياناً بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازيه مما تخرج تلك الارض من نبات و معدن ويرجعون ببضاعة شامية او غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي . وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقوموا السوق الدائمة في تلك البلدة «أم القرى».

ولا يستريح القارئ حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار إلى غيرها من الاشياء فإنه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح أن يخرج منها وله العذر في ذلك اما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا اكثر منه لئلا ينقطع الحديث فنقول ان تلك البلاد في نفسها رأس مال طبيعي كسائر البلاد. ذلك بما تشتمل عليه من معادن و نباتات برية يصلح بعضها للصبغ وبعضها للديغ وبعضها للطب وبعضها

ص: 72

للطيوب وبعضها للتنظيف فإذا أضفت إلى ذلك ما كانوا يجففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد و من أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرهما تجد بضاعة غير يسيرة بحمل مثلها إلى أطراف بلاد الشام مما هو إلى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم.

نحن اليوم لا نتصور مجتمعاً حضرياً إلا بأن يكون فيه أمير مسيطر و جند له حافظون، وزراع وصناع و تجار للمعاش ضا منون ، وقد رأى القارىء ان مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر و جند له فعسى أن لا يقيس على استغنائها عن سيطرة الامير استغناء عن الزراعة والصناعة والتجارة كلاً فإن هذه الثلاث لا قوام القوم بدونها . ونحن إذا ذكرنا ما كاز من النصيب لقوم «خديجة» منها لا نقصد به عدّ مفاخر لهم إلا من جهة أنهم تغلبوا بمداركهم وهمهم على كل ما كان يحول بينهم وبين المغامرة في إدراك شأو الأمم والابتعاد عن البداوة من بعد أن أوثك جوار البادية أن يجذبهم إليها كما جذب إخوانهم الآخرين .

فهم تحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن العامرة وأعطوا الحضارة حَقَّها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق. وتراهم مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأنفون منه و يترفعون عنه فأقاموا ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لأنّ العرب كانت تأنف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا إليه من الزراعة على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خالياً

منها البتة فهناك اودية يوجد فيها الزرع والغراس وتجري فيها العيون . وما الطائف عنهم ببعيد وهو أبو الزراعة .

اما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باشرها القوم بأنفسهم كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ماكانوا يأنفون منها . فمنهم من كان يبيع اللباس، ومنهم من كان يبيع الادهان ، ومنهم من يبيع اللحم ، ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح ، ومنهم من يبيع الرقيق خاصة . وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدور عليها حاجة الإنسان المتحضر من صنوف الاكسية المعتادة ، وضروب الاطعمه والاشربة المعهودة ، وصنوف الماعون والاداة اللازمة، والمناقير المعروفة، والحيوانات المتداولة والاسلحة الشائعة . ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ويقال إنَّ عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهير كان بزازا ويقال انه كان سمساراً كما أنَّ أبا بكر الخليفة الاول كان بزازا (رضي الله عنهما).

ومهما كان ذلك المجتمع أقلّ تشبهاً بالزخرف وأبعد عن التسابق إلى المتاع الزائد عن الحاجة نرى أنَّ حاجاته التي تحتاج إلى عمل التجار لم تكن قليلة ونرى أنَّها وحدها كافية لأن يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً من المال فالتجارة ولا شك هي السبب الاول في ثراء قریش وكثرة المثرين منهم لأننا لم نعهد لهم إلى ذلك العهد وجهها من وجوه المرباح ونماء المال أعظم منها .

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها عندهم هي الذهب والفضة ، والابل ، والرقيق ، والاراضي للزرع والفراس ، والاراضي للمعدن ، .

أما الذهب والفضة فهما الوسطة العظمي في تبادل العروض والاعيان

ومن مطالعة أخبار القوم يظهر أنه كان لديهم منهنما شيء كثير . من شواهد ذلك قول النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » ومن شواهد ذلك أنه بعد أن ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) في دار هجرته (المدينة) والآخر عدو له في وطنه (مكة) أدت تصارييف العداوة إلى اشتعال حرب بين الفريقين في المحل المسمى ببدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لأصحاب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ووقع في أيديهم من عشيرتهم سبعون أسيراً اقتدوا أنفسهم ووزنوا في فدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو عشرين قنطاراً مصرباً من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه ماعليه . وما هو بالمقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم. ومنها ما ورد من أنهم انفقوا على حرب النبي في أحد رمح العير التي جاء بها ابوسفيان من الشام وقدره خمسون الف دينار .

وكانت النقود التي يتداولونها من ضرب الروم غالباً وبعضها كروي ولكن لم يكونوا يتداولونها إلا بالوزن ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد ظلت النقود الأجنبية إلى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذي أحدث النقود المكتوب عليها بالعربية .

وأما الابل فهي أوفر أصناف أموالهم والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الغنى والغناء، والنعمة والهناء ، من درّها الغداء ، ومن أوبارها الكساء ، ومن جلودها الماعون والحذاء، ومن بعرها الوقود

للطبخ و كشف الظلماء ، وظهورها مراكب للظعن والحمل والنجاء ، (1) وبطونها أعظم بها واسطة للنماء ، فبعيشك أيها المطالع ! في أي صنف من أصناف الاموال الحضرية يجد أحدنا مثل هذه البركة، التي لا تحتاج إلى شيء عظيم من الحركة ؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يعدّ مالاّ في جميع جهات الارض وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق و إذا صرفنا النظر عن استهجان هذه المادة نرى أن لا شيء أنفع من عمل الآلة المتحركة بنفسها ، النامية بطبيعتها ، المدركة بخلقتها ،

وأما الاراضي للزرع والفرس فكان فهم أفراد يملكون منها كثيراً ومن متمولي قريش من كان يملك اراضي في الطائف كعتبة وشيبة ابني ربيعة (من فخذ بني عبد شمس) وغيرهما .

وكان نظر القوم الى الزرع والضرع أعظم من نظرهم الى الذهب والفضة فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال حبران يصطكان إن أقبلت عليهما نقدا، وان تركتهما لم يزيدا، ان أفضل المال برة سمراء ، في تربة غبراء، او عين حرّارة ، في أرض خوارة ، أشار بهذه الكلمات القليلة إلى أنّ الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض التي هي اول رأس مال أمّا الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن حركات دولاب الاعمال فقط. وهذا هو الأس الصحيح في علم ثروة الامم .

واما أراضي المعدن فالظاهر أنّ بعضها كان مشاعا و بعضها كان مملوكاً اما كون بعضها مشاعاً فنأخذ من عادة العرب في جاهليتهم من أنّهم لم

ص: 76

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن إنما يجعل لها حمي وحرماً الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العمومية التي هي حق للخزانة العمومية خزانة المملكة . واما كون بعضها كان مملوكاً فنستفيد مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي (1) الذي كان يملك معادن بني سليم . وكانهم لشيوع ملك بعض الناس بعض المعادن كان من الناس من يطلب من النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) بعد الفتوح أن يقطعه شيئاً منها فقد طلب بلال بن الحارث أن يقطعه معادن القَبَلِيَّة (منسوبة إلى قَبَل بفتحيتين) وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة ايام فأقطعه أياها وأقطعه جبل قدس (2) للزرع .

هذه هي أصناف الاموال التي كان بها ثراء هؤلاء القوم يضاف إليها العروض والامتعة التي كانت تتداول في التجارة وإلى مثلها يؤول اليوم كل ثراء فإن ملك الارض والمعادن لا يزال ايضاً ينبوعاً ثوراً للثروة ، واستخدام الفعلة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق اعني أن فائدته المادية كفادته ، والنقود لا تزال كثرتها وقتتها ايضاً معياراً

ص: 77

1- الحجاج بن علاط ليس بقرشي بل هو من بني سليم ولكنه كان متزوجاً من قريش «من بني عبد الدار رهط خديجة» وكانت أمواله تستثمر في مكة وكان مكثراً من المال . أسلم يوم فتح خيبر ثم جاء إلى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فقال له أن لي ذهباً عند امرأتي « في مكة » وأن تعلم هي وأهلها بإسلامي فلا مال لي فائذن لي لأسرع السير واخبر أخباراً اذا قدمت أدراً بها عن مالي ونفسي فأذن له النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وقدم مكة وأخذ أمواله بحيلة .

2- جبل قدس معروف في جوار المدينة

عظيماً لثروة الاسم، وعلي مقدار ما تقدم كله يكون محور التداول للعروض والامتعة والاثاث والرياش .

وقد كان من لا يستطيع أن يباشر التجارة بنفسه أو السفر من أجلها يعطي من ماله إلى آخر على أن يتجربه ويكون الربح بينهما أو يعطيه بالربا وكان معهوداً فيهم أو يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه إلى من يتجر به بالمؤاجرة أو المضاربة فلذلك لم تصعب التجارة على السيدة « خديجة » التي كان لها ما لئساء قومها من الاستقلال في أموالهنّ، ولم يكن لأبيها ولا اخوتها سلطان في ذلك المال الذي كانت تبعث به إلى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا .

وفي إيثار هذه السيدة إرسال أموالها في التجارة على الاتجار بالنقود في مكّة كما يفعل المرابون دلالة على بعد نظرها ، وعلوّ همّتها ، وعظيم عطفها وحنانها على وطنها ان الأوطان تسمو باقدام أرباب اموالها على نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واطهار صنوف الثراء، ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود

ص: 78

الفصل التاسع - زواجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم

تزوجت خديجة قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) مرتين تزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي. وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الاسلام أي أنّ الرجل يخطب إلى الرجل بنته او من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . واما ما يذكر من أنواع أنكحة الجاهلية الاخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم، وإّما يفعل اغلب ذلك الإماء والحقائر .

وولدت هذه السيدة ولدًا من أبي هالة وسمته «هنداً»، على عادة العرب اذ كانوا يضعون للذكور احياناً أسماء الإناث فهند هذا هو ربيب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أخو فاطمة لأمها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الاسلام وأسلم. روى عنه ابن اخته الحسن بن علي حديث وصف النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) المشهور في الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم وقد قتل هند مع علي يوم الجمل .

سيعجب القارىء من زيادة تعريفنا لإبناها هذا ونحن لا نكتمه السبب وذلك أننا نحبّ ان لا ندع شيئاً مما يتعلق بسيرة هذه السيدة مغفلاً ومهملاً ولا سيما بعداذ رأينا أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا لذكر ولدها هذا فكاد يضيع ويخفى إلا على المنقبين في بطون الاسفار الواسعة وعذرهم

في ذلك أنّهم إنّما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرّفها بزواج النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) .

وانّ لنا - والحق يقال - حقاً على هؤلاء الناس الذين يريدون أن يعرفونا بشخص ممّن مضى فيمسكون أنفسنا بالشيء من أخباره ثمّ يقطعون ويجذبونها إلى شيء آخر .

على أنّي لا أنكر أنّه اذا علمت الشمس لا يبقى لبصيص السراج مكان. فمن ذا الذي يعلم أنّ هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد » صلى الله عليه وسلم وولدت منه «فاطمة» الزهراء أمّ الحسينين ثمّ يرجع باحثاً عن ابنها ذاك من زوجها الأول ابي هالة ؟

لعمرك إذا وصلت بسيرتها إلى هذا المقام تضاءلت امام نظرك كلّ ما تسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك إلى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رنّ الكون كلّه باسمه الشريف.

فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها في لوح الوجود ، وبدء إشراق مواهبها في سماء السعود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل ، وليفيض نوراً وسناءً ، وليتبارك كملاً وبهاءً

الفصل العاشر - محمد (عليه الصلاة والسلام) قبل نزول خديجة

وإذا العناية صاحبت مرءاً*** فلا تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما

ودع التردد إن أتاك حديثه*** مهما حوى مهما نما مهما سما

لا- تسأل كيف أبدع الإنسان من فتق الكواكب من رتق موادها، وقدر مدارات لحركاتها، ونظامات لتقابلها، وأنشأ منهنّ المقسّمات ليلنا ونهارنا، المدبرات صيفنا وشتاءنا، الناظمات في أحشائهنّ شملنا، المادّات بنسائمهّن نسماتنا، وبأرواحهنّ كياننا، ولا نسأل لم خلق لنا الأرض جميعاً نشرح أحشاءها، ونقطع أوصالها، ونستخرج أفلاذها، قد حصرناها على عظمها في يدنا، وحشرنا كلّ ما فيها في ذرات صغيرة من دماغنا، إن شئتنا رفع من شأنها بما نركّب من أجزائها، فيأتي منها من البدائع ما يدهش ألبابنا، ويسحر أبصارنا، وإن شئتنا لم نعبأ بها، واستشرفت نفوسنا إلى غيرها، فاطلعنا إلى مصادر الأرواح ومواردها، ومشارك الأسرار ومغاريبها، وارتفعنا إلى ينابيع الأكوان ومظاهرها، وتلمسنا ثمة حياة لا نحتاج فيها إلى ماء الأرض وهوائها، وترابها ونارها .

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الإنس وتباعدت حقائقنا، ولم طالت امالنا وأعمالنا، وقصرت آجالنا وأعمارنا، ولم جشمت نفوسنا بتكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منها، وتخالقنا في تمييزها وترجيح

بعضها على بعض ، وتدابرنا في مناهج طلابها ، وتقاطعنا في سبيل اكتسابها ، ولم هذا البون في أنصابتنا ، والفرق في مرامينا ، والبعد في مدارجنا ، والغين في معارجنا ،

ولماذا منا أناس مع الكواكب مداركهم سابعة في أفلاك الحقائق، وبروج الرقائق والدقائق، ومع الأنوار سيرهم منتشرة في سابق الدهور ولاحقها، بادي الشعوب وحاضرها، وآخرون مع الديدان مشاعرهم دابة بين أوراق الآجام وأحطابها، أو تحت دخان القفار ونقعها، ومع العصف صورهم منطوية في احشاء الاواكل، ومندرجة في الاواخر مع اخوانهم الاوائل .

لا تسأل عن هذا كله إن كانت نفسك قد وقفت عند مطمأنها من معرفة الاول الآخر ، الظاهر الباطن ، ذي الحياة الازلية الساري سرها في الاكوان والوجودات ، البادي خط جلالها وجمالها على لوح الآيات البيئات ، من الاشكال والتنوعات ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشَرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ

إذا وقفت نفسك عند هذا المظمان من المعرفة فلعلها تصل بك إلى معرفة أنّ ذا الحياة الازلية ذو حكمة ليس في وسع استعدادنا أن نحيط بأسرارها خيراً مهما حامت حولها آمال مداركنا ، ومهما طافت في سوح قدسها صوافي سرائرنا ، فأخلق بأحدنا أن يتذكر في هذه المسامح الفكرية عجز أجنحة عقولنا عن أن تصل بنا إلى ما دون هذا السر الاعظم، ووقوعها بنا في كثير من أشراك الاوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا ، وفي جوار جسومنا ونفوسنا .

وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة إلى الاذعان بأنّ هذا الحي الازلي الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على ما يختص بها ممن يشاء فله الامر كله فيما بيدي، ويصور، وله الحكمة فيما يتوّج ويميز ، منه كل شيء واليه المآب .

وإن كنت في ريب من الحكمة الازلية، والعناية السرمدية، فدع نفسك واقفة ماشاءت في عتمة النفي ، أو دائرة في سجن الشك ، أو طائفة في جو الوهم لاقرار لها . وإتّما نحكي هنا للذين هم بربهم يؤمنون .

سبق في العناية الازلية أن تكون هداية شعوب كثيرة إلى أقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم في العالمين وكان من هذا الشرف الذي أعتده الله للعرب أعظم نصيب لعبد المطلب الذي أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده .

كان عبد المطلب (1) من كبار أشرف قريش ورزق عشرة أولاد

ص: 83

1- اسم عبد المطلب شيبه ولتسميته بعبد المطلب حكاية وهي أنّ أباه هاشماً كان قد تزوج أمه من بني النجار في « يثرب » (المدينة) فلما ولدته تركه عندها حتى كبر وكان هاشم تاجراً خرج بتجارة إلى الشام فمات في « غزة » فذهب أخوه المطلب بن عبد مناف ليأتي بابن أخيه فأبّت والدته أن تعطيه إيّاه حتى أقنعها بأن اقامته في بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ولما جاء به كان مردفه خاصه على بعير فظنت قريش أنّه عبد ابتاعه فقالوا عبد المطلب وقال لهم المطلب ويحكم إنّما هو ابن أخي هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كأنّها علم له .

من الذكور وكان ابنه عبد الله أحبهم إليه فزوجه شريفة من شرانف قريش من بني زهرة تدعى آمنة فحملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما وضعت كفل وليدها جدّه وكان هذا الوليد المبارك محمداً صاحب القرآن .

فما أسعدك يا عبد المطلب أكنت تدري وأنت في أبواب أبرهة الحبشي تتطلب منه رد ذلك القليل من الإبل الذي لك مما استاقه من إبل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تنشي أعناق الملوك في الاجيال المقبلة خاضعة لذكوره .

أكنت تفكر اذ قصارى أملك حفظ مقامك بين قومك المنقطعين في تلك البرية ان اسمك سترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور تشيرة كلما اذكر نسب حفيدك العظيم الذي أعتده الله لمنصب يتبعه من أجله العالم ويبقى ذكره فيهم إلى الابد .

أخطر على قلبك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يحج إليه إلا العرب ستحج إليه كل شعوب الارض اتباعاً لما جاءهم به حفيدك من الهداية .

أجاء في خلدك ان كنتك آمنة الزهرية إنما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم ويعلي سلطانهم وينشر لفهم وقيم لهم مجداً مع الدهر مذكوراً، وفي كتاب العالم مسطوراً

هل كنت ملهما اذ سميت محمدًا؟ ؛ وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له العالمون تحميماً لا ينقطع ، وتجيداً لا يزول؟

أعرفت أنّك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك إياه وعنايتك به إنّما كنت تحفظ للعالم كله التحفة التي أتاهم الله من كرمه ، والوديعة القدوسية التي اختص الله بيتك لظهورها، وقومك لانتشار مبدأ نورها .

فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير ايها المخصوص بعناية الحي الأزليّ ، فليدم ذكرك جمالاً للمحافل واسمك سامياً مع اسم حفيدك نبيّ الشعوب وبركة العالم .

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما الصلاة والسلام أى حوالي سنة سبعين وخمسمائة منه وحوالي السنة الثامنة والأربعين من ملك كسرى انوشروان . ولم يكن قومه يعرفون سنّي الامم ، تواريخها ولا سنّي انفسهم وإنّما كانوا يحفظون الأعمار ويوقتون آجال الأشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الاميين إلى عهدنا .

ولد عام الفيل وهي سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها عندهم تدور صفوة حكايتها على حرت فيل القائد النجاشي و ابائه المسير تالماء مكة لذلك سميت بهذا الاسم. وحادثة الفيل شديدة الشهرة ويصحّ أن نقول أنّها من التاريخ المقدس عند المسلمين أي إنّها ذكرت في القرآن ولكن على اسلوبه في القصص التي يذكرها لاجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين ونبلة الاخبار.

وقد أعطي المرضمة على عادة قريش في اعطائهم الأولاد للمراضع من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء أن تتربى أجسامهم في البادية حيث الارض النظيفة قد كسيت من الازاهر أبداع النمارق الطبيعية ، والنسائم

متحملة من ذلك العبير تهديه الى النفوس رائحة وغادية .

اذا بزغ رأس النهار أرسل إلى أفئدة أهل النشاط روحاً مبشراً بطيب عقبى العمل، وسوء منقلب الكسل، وكأنَّ بينه وبين سكان البراري وساسة الأنعام عهداً أن لا يقبل بطاعته الباسمة الا وهم . ستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسم هممهم و ثغور اجتهادهم، ورافعون إليه آيات الشكر على ماله من الايادي البيضاء في اخضرار عيشهم، واييضاض وجوه آمالهم

يزغ الفجر يوماً على نسمتين في أباطح تهامة قد أسفر عليهما البشر، ونفذت الغبطة من أعماق جوانحهما إلى أسارير وجهيهما، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولها من مجالي عرائس الطبيعة لأنَّ السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم، ولا أوثقت رياضهم، ولو لم يصن الوادي لهم القليل مما أغيثوا به مرة لقتلهم الظلماً - ولا لما حولهما. من وافر الرزق وسابغ النعم لأنَّهما لم يكونا يملكان إلا غنيمات قد جارت عليها السنة، وقتلها الجهد والجذب، ولكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصابها فلاتهما فرحاً، وأشبعتهما ابتهاجاً، ولم يكونا يفتران من هذا الحديث الذي كانا يتغذيان به صباح مساء، ويجددان به شكرياً على هذه النعماء، وهذا ما كانا يحدثان به :

- حقاً يا حليلة أنك قد جئتنا بتحفة سنية ونسمة مباركة

- أي والله يا حارث وانظر ما أجمله، انظر إلى هذه الاشفار الهدب، انظر إلى هذه العيون الدعج، انظر إلى هذا الجبين الأزهر، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين .

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد صبيحة يوم كانا قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بحفيد عبد
المطلب

ص: 86

لترضعه وقد حدثت هي حديثها كيف جاءت به وكيف رأت من بركته قالت :

خرجت مع زوجي وابن لي صغير على أتان لي قمراء (1) معنا شارف (2) لنا والله ما تبض بقطرة وما تنام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت (3) بالركب ضعفاً وعجفاً حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها أنه يتيم وذلك لنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت إلا أخذت رضيعاً غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي « والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم ولأخذته». قال لا عليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت فذهبت إليه فأخذته وما حملني على أخذه إلا إني لم أجد غيره . قالت فلما أخذته رجعت به إلى رحلي فلما وضعت في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا أنّها حافل (4) فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ربا وشبعاً فبتنا بخير ليلة قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمي والله يا حليلة قد أخذت نسمة مباركة قالت فقلت والله إني لأرجو ذلك. قالت ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي فوالله

ص: 87

1- القمرة بالدم لون إلى الخصر أو بياض فيه كدرة حمار أحمر وأتان قمرا

2- الشارف الناقة المسنة

3- أذمت بالركب أي حبستهم لانقطاع سيرها من عجبها أي هزالها وضعفها

4- حافل كثيرة اللبن

لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمهم حتى أن صواحيبي ليقطن لي «يا ابنة ابي ذؤيب ويحك اربعي علينا (1) أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟» فأقول لهنّ بلى والله إنّها لهي . فيقلن «والله إنّ لها لشأناً

قالت ثمّ قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فتحلب ونشرب وما يجلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعياتهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياً ما تبصّ بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شباعاً لا يشبه الظمان»

فيالك من سعيدة يا حليلة إذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيته العناية الخاصة ولم يكشف لك من آثارها إلا هذه البركة التي ملأت بينك وويلكن أيتها المراضع الغيبات المعرضات عن اليتيم التماساً للرضعاء الذين لهم آباء . لقد فاتكن الحظ وما الحظوظ بالاختيار، وعزاء لكم أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتيماً

بعد ان ربّي « محمد » (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) في بني سعد عند السعيدة حليلة جيء به إلى أمه فذهبت به وهو ممتلئ قوة وهو ابن ست سنين إلى المدينة لتزيه اخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها إلى مكة توفيت في مكان يسمى الأبواء . وكان عبد المطلب شديد العناية بحفيده ويتوسم فيه علو الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودّعه مفارقاً هذه الدار وأودعه لدى الجناب الآلهي الذي من لدنه واردات البر والبركات اليه ، ونوافح الرأفة والحنان عليه،

ص: 88

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق عبد الله ابي النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فادخله في آل بيته وتعهد تربيته وتثقيفه .

وكان أبو طالب امرءاً نبياً شهماً صادق المروءة، ماضي العزيمة، نصاراً للعدل والانصاف . عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه اقصى ما يمكن أن تكلف النفس في حماية ابن أخيه لما قام بالدعوة ومن موافقه أمام قريش في نصره والذود عنه. وقد خلف ابو طالب أباه عبد المطلب في المقام السامي بين قومه فكان ابن عبد الله ينتقل في بروج العزّ والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي، وتنطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والإحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلّى بها ذلك الرجل السامي التربية (أبو طالب) .

نحن قد رأينا من آثار العناية الازلية بذلك اليتيم العزيز ما يصحّ القول معها انه كان مستغنيا عن تربية أحد ولكن لماذا لا نقول إنّ إعداد ذلك العم الفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به .

أما تربيته اياه التربية الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور علماء الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لا نظير لها وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله . ولا يتم الجمال إلا بصحة البدن وهي إنّما تمّ بحسن التربية الجسدية .

و اما تربيته اياه التربية العقلية فكانت جدية أن يسجد أمامها فلاسفة النفس وأساطين العقل وهناك من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا في حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة المبتعدة في دارها عن مناشى الارتقاء العقلي ، ومناجم الإشراق الفكري ، لا كتب يدرسونها ، ولا قوانين للمعارف يرتبونها ، ولا شيء إلا غرائز طيبة يتوارثونها، وقواعد عامة يتناقلونها، وحصافة أوتوها

في نقش أصح التجارب في المدارك، والاحتفاظ بأثبت الفوائد في الذواكر ،

وكذلك يفعلون في التربية الأخلاقية ينشئون الذرية على دروس المشاهدة في مدارج العمل ، ودروس القصد والاعتدال في معارج الأمل،
فيأتي من تلك السلائل التي لم تلحقها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ في العقول والاخلاق، أفذاذ في الهمة والاعمال، بطبع من المرين،
ونقش من المثقفين ، وذلك كأنّ شأن أبي طالب ودأبه مع ابن أخيه العزيز ، وربيبه النجيب ،

نشأ «محمد» (صلوات الله عليه) في أمثل التربية بأنواعها كلها على يد ذلك الفاضل العظيم فجاه منه رجل أحسن الناس خلقاً وخلقاً،
أذكاهم عقلاً ، وأزكاهم نفساً ، وأصدقهم لساناً ، أنداهم في العرف يداً ، واثبتهم في الأزم قلباً ، أرحمهم للضعيف، وأشجعهم على القوي ،
أبرهم للقريب ، وأعد لهم للبعيد ، أقربهم إلى المعروف سمعاً ، وأبعدهم في الامور نظراً ، أسدهم رأياً ، وأشدّهم اقداماً ، ألينهم للصاحب
جانباً ، وأكرمهم للخير صاحباً ، وحسبك أنه عرف منذ صباه بالأمين وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك المنصب العظيم فزاده
جمالاً وجلالاً وكمالاً والله أعلم حيث يجعل رسالته .

نشأ ذلك المرابي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثني عشرة سنة سار به إلى الشام وكان أبو طالب تاجراً فأوقفه في هذا
السفر على ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة ، وأحوال العالم المتحولة ، ففي طريقهم من مكة إلى الشام منازل أمم كانت
فبانة . كانوا على وجه الارض جمالاً لها فلما فسقوا عن السنن التي تحيا بها الامم شالت نعماتهم طرا، وطارت نعمتهم جميعاً ، وأصبحوا
كأن لم يكونوا « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا» وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخاوية

أو المنتقلة إلى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من الفوائد. ولقد كان فيما أوحى إلى هذا المنعم عليه بعد أن صار نبياً قوله سبحانه «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون».

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودساكرها، ومزارعها ومصانعها، ومتاجرها وحكومتها، وأراه كيف يكدح الناس جميعاً لياكل نفر منهم خبزه بعرق جبينه، وليتمتع نفر آخرون ثمرات تلك الأرض الطيبة، ونفاس ما عمله تلك الأيدي الثقفة، وكيف يعمل هذا لهذا في الاجتماع ليتم قوامه، ويحفظ نظامه .

ومرّ به على الأديار والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المراحة في هذا الحطام الزائل، متوجهة نفوسهم إلى الوطن الذي يليق بالروح الغريبة في هذا الهيكل الجسماني غير ممدودة أيديهم إلى شيء من هذه الأرض إلا إلى ما يقي البدن من جوع وعري وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها، وبعض أصواف حيوانها وأوبارها .

في بعض تلك الأديار في «بُصرى» وقف به على الراهب «بحيرا» وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو الكهانة فأنبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به .

وفي هذه السفرة مرّته على أساليب التجارة، وأطلعته على ضروب البضاعة، وصنوف الاداة والماعون التي يتعاطى النجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده مالا يكون في غيره ثم يحمل إلى بلده ما ليس فيه وكيف

يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية البدائع الانسانية مالميس لغيرهم .

فناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي درس كهذا من فوائد التربية العملية مالميس في ألف درس من التربية الكتابية أو النظرية .

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار وهي حرب هاجت بين قريش وبين قيس فرأى في هذه الواقعة كيف تسبباً الصفوف ، وتتقابل الأبطال، وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصبر إلى حتفهم، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب، وكيف عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جنباً، وتخور عزائمهم جزعاً .

ولم يباشر في هذه الحرب قتالاً وإنما كان ينبتل على أعمامه أي يناولهم النبيل أو يرد عنهم النبيل . وكان ذلك كافياً لتمرنه على مواطن النزال، ومواقف النضال ، وليس يخاف أن الاخذ بيد الناشيء إلى معارك أبطال المبايعات ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات ، هو أعظم الوسائل التي تجعله أهلاً للمقامات العلى بين الرجال، حتى اذا أتاه الله للاخذ يقوم الى سوح العز والسؤدد والصلاح والفلاح، كان نعم الدليل الهادي، ونعم السائق والحادي.

فلما بلغ خمساً وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا « خديجة » أن يخرج في تجارة لها إلى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار وأشار عليه عمه بقبول ذلك وطلب له أضعافاً فرضيت وسار بتجارته مع الركب إلى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه « ميسرة » فلما رجع بالبضائع إليها باعتهما فريحت أضعافاً وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة « خديجة » معه

الفصل الحادى عشر - (الحب الشريف)

إنَّ أشرف السير سير أهل الفضيلة وما الفضيلة إلا من خصائص النفوس فمن كان من عشاق الفضائل حسن به أن لا تفتر نظرات بصيرته إلى النفس فهي مستقر الخوارق ، ومستودع العجائب .

النفس مجلى الآيات الكبر، ومهبط الفيوضات العلى، والمرآة العظمى التي ينكشف بها الازل والأبد، والمطبعة العظمى التي ترسم بها الاشياء وتكثر الصور ،

هي السلك الممدود بين مبدع الطباع ، ومقيم الشرائع، وبين الجواهر المتألفة الصامته ، والظواهر المسخرة المطيعة ، فهي خليفة عليها، واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ، وهي مجذوبة من طرف إليها بجاذبية الانس والعادة ، ومجذوبة من طرف آخر إلى مصدر بوارقها بجاذبية الحب والشوق ، فبانجذاب النفس إلى الظواهر تأخذ الظواهر حظها من الانكشاف ، وبانجذاب النفس إلى مانح الظهور تأخذ النفس حظها من الشهود والاشراف، فيحق لها في الحاليتين أن تتمجد بما ميزها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ،

أعظم خصائص النفس الحب والبغض بل إنَّ هاتين الطبيعتين المتضادتين أعظم نواميس الاكوان والوجودات كلها، لكن اختلفت

المحبات ، وتباينت الاشواق ، وأوتيت النفس الانسانية أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذي تدور فيه، ولا تصلها بعالم الحس وعالم الغيب، وترددتها بالانجذاب بينهما فهي ان وقفت يوماً مع الظواهر أنست بها فعشقتها لما رش عليها مبدعها من الحسن الذي هو وصفه ، وان ارتفعت إلى المبدع دهشت فتولعت فتدلعت لما هنالك من المجالي الازلية التي تطير السرائر شوقاً إلى التمتع بها .

الفضائل والرذائل، الخيرات والشرور ، الحزن والسرور ، الرغبة والرغبة ، الاقدام والاحجام ، الكسل والنشاط ، الارتفاع والهبوط ، كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارهما. وكل درجة من هذه الاشياء فإثما هي على مقاييسهما ، هما باختصار ركنا السعادة والشقاء فمن هدي إلى تصريفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد أهديت إليه السعادة وأوتي بالحب الشريف والبغض الشريف حظاً من الخير عظيماً .

كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر والقلب الطاهر مركز الحب الشريف فماذا أحبت سيدتنا هذه كان قلبها تَوَاقاً إلى معالي الأمور، عظيم الشنف بمحاسن الاخلاق ، وقد أمد الله فطرتها امداداً عظيماً فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هي التي تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تتدرج في زمرة عشاق المجالي الازلية .

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت أسرارها،

وانفتقت أنوارها، فكان لها تشوّف إلى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانية، كما هو شأن ذوي السرائر الصافية، وحصل لها من هذه الحالة الطيبة قوة فراسة والفراسة نور، فكانت تهتدي بها فيما هي حائمة الروح عليه من الفضائل ، ومن أحبّ شيئاً أحبّ أهله من أجله، فلما عرفت ابن عبد الله ووجدت فيه ما يعشق من المزايا العملية، انتشرت حبة من تلك المحبة الشريفة التي كانت بها تنشد المكارم فوقعت في محل من قلبها لتنتب شوقاً إلى هذا الرجل الصالح الذي ألقت المكارم كلها لديه، وأيقنت أنّ معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة ، هو أعظم الآثار التي كانت تشوف إليها من لدن العناية المرجوة .

الآن وجدت محبة الفضائل والمحامد أعظم من تتجلى الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها بل كيف لا يميل إليه فؤادها؟ فالأمانة هو ذلك الشهير فيها وقد سبرته في متجرها فربحت بواسطته أضعافاً، والشجاعة هو المنشأ فيها على يد عظيم الهمة أي طالب، والنباهة هو الذي تسطع في محياه طوالعها، والحكمة هو الذي تقرأ في سيماء آياتها، والعفة هوربها ، والمروءة هو مجمع شواردها، ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها، فأى الفضل تشد بعد هذا مُحبة الفضل، وأي المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد؟ كمال خلق وكمال خلق ، جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثلها أقرانه من الشبان ، ووقار لم يحظ بأقله الكبار، وهمة لا تقف أمامها الصعاب وعزيمة لا تني أمام الثقال ، قوي شديد، حلیم رشید، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله في الناس أي مؤمل *** إذا قاسه الحكام عند التفاضل ؟

حليم رشيد عادل غير طائش ***يوالي إليها عنه ليس بغافل

لقد علموا ان ابننا لا مكذب *** لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

فأصبح فينا أحمد في أرومة *** تقصر عنه سورة المتطاول

فما أكثر غبطة السيدة «خديجة» اذ عرفت هذا السيد الجليل، وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر به، وما أقوى نور فراستها اذ علمت أنه لا نظير له، وإن سعادتها لا تتم الا به، وما أحقها ان تقتنم الفرصة وتسبق إلى تزوج هذا الشريف الذي جمع إلى شرف النسب شرف الخلال

الفصل الثاني عشر - تفاؤل هذا وقته

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان كما هو شأنها في كل الازمنة إلى زماننا هذا وكان علماء التوراة ينبئون دائما بظهور نبي منتظر وبعضهم كان يقول إنه سيظهر من العرب. والراهب بحيرا تفرس بابن أخي أبي طالب إذ كان معه صغيراً وقال له: سيكون لابن أخيك هذا شأن: ولم يكن بعيداً عن المألوف أن يخبر بعض الناس بالمغيبات ولكن لم يكونوا يصدقون كل شيء من هذا القبيل ولا يكذبون كل شيء كما هو الشأن في أهل زماننا أيضاً.

وقد كثر التكهن قبيل ظهور النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ولكن أكثر الناس لم يكونوا يبالون بتلك الاخبار لأنهم تعودوا أن يروا شيئاً من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحياناً فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تامة ولا سيما في الامور العظيمة.

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيد لهنّ في الجاهلية اذ تمثل لهنّ رجل فلما قرب نادى بأعلا صوته: يا نساء أهل مكة سيكون في بلدكنّ نبي يقال له أحمد فمن استطاع منكّن أن تكون زوجاً له فلتفعل، فكذبته ورمىته بالحصى وكانت فيهنّ « خديجة » فلم ترمه كما رمينه .

لم يكن هذا المنبيء كاهنا معروفا فلذلك احتقره النساء لأنهنّ لا يعبان في الغالب الا باهل الشهرة . ولكن كان قومهنّ يعتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولاً من هذا القبيل ثم يغيب فكانّ السيدة « خديجة »، اعتقدت أنّ هذا المنادي هاتف فلم ترمه كما رماه تراثيها ولعلّها صدقت إذ ذاك وتفاءلت خيراً ورجت أن تكون صاحبة هذ الحظ .

وان صحّ ظننا هذا بالسيدة كان لنا دليل جديد على عظيم تطلعها إلى بركات الجناب القدسي فإنّ الرغبة في تزوج المنعم عليهم بالنبوة لا تعظم إلا من العارفة بذلك الجناب الاعلى الذي يتفضل بخلعة النبوة على من يشاء .

كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بني اسرائيل ومعروف أنّ النبيّ رجل كالرجال ولكن يصطفيه الله ويرفع درجة نفسه على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلعه على ما لم يطلع عليه أحدا من أسرار عالم الغيب ، وليست النبوة ملكا أو حظوظا زائدة من نعيم الدنيا بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم إلا مقاومة الناس اياهم وتعذيبهم . والنساء إنّما يرغبن بالنعيم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحلل والحلي وكل هذا لا يرجى لدي الانبياء الذين تنصرف

أنظارهم عن متاع الغرور ويلتفتون إلى مافيه غبطة الروح فلا تتصور السعادة من النساء عند الانبياء إلا اللاتي أنعم الله عليهنّ بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة «خديجة».

ولما رجع عندها «ميسرة» من الشام في تلك السفارة التي ذهب بها مع الهاشمي «محمد» أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالها إلا لمن سمعت أخبارهم من الصالحين المباركين فما لبث أن رنّ في قلبها صدى ذلك الصوت الذي سمعته بأذنها، صوت ذلك المنادي في النساء المجتمعات اللاتي كانت معهنّ في العيد . وكان هذا الصدى الذي رنّ في قلبها تتألف منه هذه الكلمات :

«تقاؤل هذا وقته»

الفصل الثالث عشر - الخواطر في قلب «خديجة»

كانت «خديجة» تعرف أن ليست النبوة بالكسب والاجتهاد وإنما هي محض عطاء واختصاص من الحي الازلي الدائم ولكن كانت تعيد على خواطرها ما حكاها لها عندها «ميسرة» ويرنّ على أثره ذلك الصدى في قلبها فتقول في نفسها أي مانع يمنع رجائي بفضل الله بأن أكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذي أنبأ به الهاتف؟ أي مانع يمنع فضل الله عن قومي إذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذي يقول عنه علماء التوراة وكان لها ابن عمّ من جملة علماء هذا الكتاب .

ص: 98

ثم إذا مرّ بقلبها خاطر آخر يقطع عليها هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام - التي كانت تراها في اليقظة - ترجع إلى الشيء المحقق الذي لا ينازع فيه خاطر ولا يماري فيه حجي وهو ما لى به ابن عبد الله من صفات الكمال فتتمثل في فكرها تلك الطلعة السنية ويلمع أمامها برق من تلك العينين الدعجوين، وتنسى الشمس وسائر الدراري حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق، ويقوى إيمانها بالملائكة إذ ترى في هذا الشخص البشري آيات القدس والطهارة، فتقول في نفسها أفليس حسبي أن أكون ربة النصيب من فتى قريش الوحيد الذي كمله الله ان لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذي أنبأ به الهاتف .

ثم تتراجع إليها الخواطر ويقلبها ذلك الحبّ الشريف الذي تمت حبته في قلبها على ضروب من الحيرة فتقول في نفسها مرة أخرى من لي بهذا المكمل الذي مال إليه قلبي، وحامت حوله خواطري، وعكفت في دائرة محاسنه نفسي، أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة؟ أف للمادات ما أنقل أحكامها، وما أظلم قضاءها، وما أشد عتمة مسالكها، وما أسوأ عواقب الجمود عليها، وما أبخس صفقة الذين لا يتزحزون عنها،

نعم نعم أف للعادات فكم أوقفت بعض الاجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضارّ، وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكر فانطمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين، وعمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس .

أفّ ثمّ أفّ للمادات فهي قاطعة الطريق على نتائج المقول ترج بها في مهاوي العدم، أو تذرّها في سجن أفقر ممنوعا عنها كل ما يربها، ويا عجباً

لبنى آدم الذين يضعون المادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم أليس لهم ما يذكرهم بأن العادة من صنعة أيديهم و تصوير أحلامهم أليس لهم ما يبصرهم بأن العادة يجب أن تكون تابعة لا متبوعة ، و متقادة لا قائدة ، حتى اذا فتحت أمام بصائرهم أبواب آخر لما هو خير ودعوا عادتهم تلك محمودة على قدر ما نفعت و مدمومة على مبلغ ما اضرت ، واستقبلوا آخري مصاحبها على مقدار ما يدوم من أسبابها، وينفع من أبوابها .

تبرمت «خديجة» بالمادة كثيراً ، وتأقت من تقلبها طويلاً ، وسردت كل سيئات الجمود عليها في نفسها التي هي أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج ، لما خصها الله من سلامة الفطرة ، وفضل الفطنة وقوة الة المعرفة ، و مزيد حرارة الهمة ،

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لا يستطيعون التغلب على الثابت الراسخ وهم الاكثرون وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت ، وأحوال مضت ، ورأت انّ الناس يرثون من السالفين كلّ شيء ولا يميلون إلى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميلاً شديدة على يد عاصف من الحوادث، أوهبة شديدة من إرادة بعض الاشخاص وكم دكت الارادات القوية أطوداً من العادات .

ربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجد بأساً بأن تخطبه بنفسها لأتّها كانت قوية الارادة . ولكن من لها بآته لا يرد خطيتها وهي أرملة في الاربعين من العمر ، وهو في الخامسة والعشرين يشف محياه عن ماء الفتوة ، وينشر شذى الشباب ، والمرأة مهما قويت ارادتها تذكر

الخيبة فيغل ---ب احجامها اقدمها وهذا بعض أسباب العادة في أن تكون هي المخطوبة .

ما أصعب الخواطر على المرأة التي تجد ضالتها من السعادة ولا تستطيع الاقدام على تحصيلها! هي صعبة على الرجل أيضا ولكنها على المرأة أصعب لأنها أضعف على كل حال . بيد أن ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل به تمت نعمتها وعلت كرامتها لديه . فقوة الخفر والحياء من ضعفها، وذلك أعظم حلية طبيعية تزدان بها، ومن عطل من هذه الحلية منهنّ رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها وما أعلى وأجمل وأزين هذا الضعف الذي بدونه تمت المرأة . والجنين من ضعفها ولولاه لما حصل الاعتدال في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل .

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحياتها، وماذا تنفع شجاعته أمام خشيتها من الخيبة ، وماذا تجدي قوة عزمتهما وصبرها عند المزعجات من خواطر الحبّ الشريف الذي ملأ قلبها الطاهر بعد أن كان حبة صغيرة ألقيت فيه .

اللهم رحماك فليست القلوب من حديد، ولم تقدّ من صخر، ان نسيم الخواطر فيها يصدع ان جاءها برائحة الياس، ويرأب ان أتاها برائحة الرجاء وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ورائبة ، بيد ان رجاءها كان أغلب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المغيبة عنها إذ ذلك لا انقلاب رجاؤها يقينا . والممكن لتستكمل الغرائز حظها من النفوس كتب على الانسان أن يغيب عنه آتية من السعادة والشقاء فترى منحوسا يضحك ويلعب والشقاء يساوره عما قريب يأخذه بيانا أو يصبحه وساء

صباحاً. وترى مسعودا يتململ ويمسي ويصبح على مضاجع الحيرة والارق واجماً سادماً والسعادة من حوله مرفرفة باجنحتها ستقف عما قريب على رأسه وتشمله ويتبارك بها بيته .

فما أشد حاجة هذه السيدة السعيدة في مواقف حيرتها تلك إلى هاتف ينشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها ما أشد حاجتها إلى من ينبئها بأنها هي الجوهرة النفيسة التي أنتدت لذلك الذي ميزته العناية الازلية أكمل تمييز . ولكن ليظهر مزيد فضلها في الميل إلى رب الفضائل والمكارم التي لا تباري حجب عنها كل هاتف وحبست عنها البشري حتى أخذت الخواطر حظها من قلبها الكريم وتمكن منه كلّ التمكن ذلك الحب الشريف لذلك الذي أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التي لا تحصى على حبه .

الفصل الرابع عشر - الزواج

لا بدع إذا قلب الشوق نفوس المحبين في يد الخواطر كالكرة بيد اللاعب فإنّ قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها إلى بعض وكان جديراً أن يتجلى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليفة الله في الارض نعني الانسان . كيلا يكون بنو آدم وحواء أنقص من الجمادات حظاً في هذا الناموس الكبير الفائدة .

فبعد أن تمكن من «خديجة» الشوق الشريف هذا التمكن أصبحت جديرة أن تتناول هدية سعادتها ، وتتكشف لها الحجب عن الرحمة التي

ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول إلى النعمة الجديدة .

خطر لها أن تبعث إلى الذي سكنت مكارمه و معاليه فوادها رسولاً تسير به رغبته تستنبيء به سعدها مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن وساقها إلى هذا الخاطر قوة رجليها بالله سبحانه وحسن ظنّها بأنّ هذا المكمّل لا يرد رغبة مثلها وهي الجامعة لصنوف من المعالي يقل اجتماعها في سواها .

كانت لها صديقة اسمها « نفيسة » (وهي أخت يعلى بن أمية) فقصت عليها حديثها واثمتنّها على هذه الرسالة ولم يكن بالصعب أن تؤدي الصديقة هذه الامانة لأنّها ستتكلم كأنّها صاحبة رأي تشير به حتى إذا وجدت مجالاً كانت وكيلة بإبداء القبول .

لم تكن النسوة إذ ذاك محتجبات ولم يكن ممنوعات من مكالمة الرجال فلم تكن رسول « خديجة » محتاجة إلاّ لشي من قوة الجنان أمام ذلك المهيب العظيم وقد أمدت من سعد مرسلتها بحظ منه

ومن يكن راعيه السعد فقل *** ما شئت في تيسير ما يرجوه

جاءت «نفيسة» هذه ابن عبد الله وفي القبيلة الواحدة، يعرف الناس بعضهم بعضاً فقالت له ما يمنعك أن تتزوج فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشؤون العائلة قالت له فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة قال لها «ومن؟» قالت له «خديجة».

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ما سيبدو منه وأحدث هذا الكلام حركة في فواده وبأي شيء . يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ إلا بقوله :
خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة ، هي المناسبة، هي الموافقة، هي الصالحة

فرجعت تحمل هذه البشرى وكانت ميمونة النقيية في هذه الرسالة فالله يعلم كيف أجزلت السيدة خديجة كرامتها ولم تنتظر كثيراً حتى أتى خاطباً ومعه عمه حمزة فقال عمها عمرو بن أسد بن عبدالعزي « هو الفحل لا يقدر أنفه » وهو مثل عربي يقال للكفو الذي لا يرد ان خطب.

ما كان هذا الخاطب الكفو غنياً إذ ذاك ولكنه لم يكن أيضاً معدماً فهو من آل عبد المطلب العامرة بيوتهم بقرى الضيفان واغاثة اللفهان ففي هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخاف الله عليهم من وجوه المكاسب وأبواب المرباح بما أوتوا من الهمم والشمم ولم يكن اعتذاره ذلك اعتذار المعدمين وإنما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقدار أكبر . فمع قلة ماله في ذلك الحين أصدقها عشرين بكرة لأن إعطاء الرجل للمرأة صداقاً سنة عربية لم يكن ليحسن تركها .

والزواج العربي ليس محتاجاً إلى رؤساء ديانات، ولا تلاوة الرؤساء صلوات، بل هو عقد كسائر العقود المدنية يتوثق برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجل، فيخطبة من الرجل وتقديمه الصداق واجابة من المرأة وأوليائها تصبح المرأة زوجة شرعية للخاطب . وهكذا أصبحت «خديجة الطاهرة زوجة»، «محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)» الامين بكلمة أعلنها عمها عمرو بن أسد فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين .

الفصل الخامس عشر - (بيت خديجة بعد الزواج)

وبدأت السيدة «خديجة» بعد هذا القران السعيد تزداد معرفة بهذا الجوهر الكريم الذي أتاحه الله اليها فألقت إلى يد هذا الامين بكل ما تملك ولم يرعها أن الكرم المستحکم في سجايه سيحملة على اخراج نصيب كبير من هذا المال إلى الضعيف والمائل فإن سيدتنا لم تكن - مع تدبيرها - بالشحيحة الكاظة على المال الفاني بل كانت قد خلقت لتكون مساعدة على الجود . وهل بعد معرفتها بهذا الكفو الشريف ترى لنفسها معه أمراً ينافي أمره ، أو رأياً يغير رأيه ، وهي تلك العاقلة الحكيمة المستعدة أن تزداد كمالاً كلما أشرق لها من سماه الفيض الالهي نور منه .

وأصبح هذا البيت مثابة للمضطرين وأمنا ، فقصدته الايامي ، وشبعت فيه اليتامى ، وخففت فيه أحمال كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل، وقلة المال .

كانت تلك البلاد احياناً تصاب بعسر بل كل بلاد العالم لا تسلم من العسر على الدوام فمساعدة الموسرين في زمن العسر للمعسرين أمر تقضي به الانسانية ولكن قليل من الناس من يكون لهم حظ بالتغلب على شياطين الشكوك والاوهام التي تنهى عن الاتفاق خشية الاملاق أما سيدتنا

ص: 105

فكانت ترى إنفاق زوجها ومساعدته للمعسرين وأخذه بيد العائلين من جملة المزايا المالية التي تقرّ بها عينها .

وفي إحدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لا يخرج من هذا البيت إلا وهو امام للناس في الخير والصلاح .

وكان هو لاهيا عما أُعِدَّ له ، وعابثا بمثل ما يعيث به أترابه، ولم يكن هذا الصبي يتيماً بل كان أبوه حياً ولكن أبناء السعادة، أبناء المجد الابدي ابناء المجد السرمدي ، تستأثر المنايا الازلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة وظاهرة يراها من استعدت بصائرهم للاطلاع الجيد.

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح وهو حي أن يتربى كالإيتام في غير بيته لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير «أبو طالب» ولكن اشتداد الازمة في إحدى السنين اضطره أن يقبل رجاء أخيه « العباس » ، وابن أخيه «محمد الامين» بأن يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده تخفيفاً عنه فكان هذا الاسعد الذي أخذه الامين هو علياً الذي صار الامام أبا الائمة، وبدر سماه السيادة في الائمة .

كانت تربية عليّ (عليه السلام) في هذا البيت من جملة المكتوب للسيدة «خديجة» من حسن الحظ فإنّ الغيب كان يعده لأمر جليل له علاقة بهذا البيت .

لعله لم يخطر في بال أهل هذا البيت اذ ذاك أنّ هذا الصبي الذي يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الوسطة الوحيدة لحفظ نسلهم، ومن أين كانت تعرف السيدة «خديجة» أنّه لا يعيش لها من الذكور ولد وأنّ هذا الصبي الصغير قد أعده الغيب ختنا كريما وبعلاً صالحاً لبنتها الصغيرة، وكيف تعلم

أنه لا يتسلسل لها عقب إلا من تلك الكريمة «فاطمة الزهراء» والى يخطر في بالها أنها إنما كانت تربي هي وزوجها جدا لعترة تتصل بهذا البيت سيعدها العالم من أشرف العتر وستبقى مباركة في الارض دهوراً طويلة عالية المنار ، عظيمة الشأن .

نعم كل ذلك لم يخطر في البال إذ ذاك ولم يكن الذي في القلب إلا القيام بالواجب الذي يقضي به التضامن .

نعم ! نعم كل ذلك لم يخطر في البال ولا نوى سيد هذا البيت مكافأة عمه على تربيته التي سبقت له فان بين ذوي القربي لا توجد المكافأة بل يوجد التضامن ولكن كان هذا البيت المملوء نعماً يتقاضى وجود نفوس كثيرة تشاركه في تلك النعم لأن لأهله نفوساً لا تعرف الاستئثار ، بل تراه من العار والشنار ، لاسيما اذا بئس الجار .

وقد استفاد من مادة هذا البيت كثيرون كما أشرنا اليه أما عليّ (عليه السلام) فإنما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أو سمع بمناقبه العالية وفضائله الزاكية كيف كان هذا البيت السعيد مسعداً للارواح، كما كان مسعداً للاشباح ، وليعرف القاريء بسهولة أن البيت الذي أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صبيّاً قد كان مهذا لأكرم الآداب وأعلاها فإن عليا المرتضى هو من عرفه العالم كله ، هو ذلك الامام الاكبر الخليق ان يكون مثال القدس وزكاء النفس، هو مجمع المعالي وملتقي الاسرار العظمى و مظهر الولاية الكبرى .

فما أكرم هذا البيت السعيد وما أعظم بركاته قد رأينا الامين يجد فيه مجالاً للتخفيف عن المثقلين، والتنفيس عن المكروبين، وفيه وجد القصاد صدورا رحبة ، وأيدي مبسوطة، ولديه خيم الجود والسخاء، كما خيم العدل

والوفاء، ومنه اشترقت الآداب العالية، والتربية الكاملة، وماذا ترى من بركات هذا البيت بعد ذلك يا ترى؟

الفصل السادس عشر - (العمل الروحي)

أشرفنا الآن على بحر كثيرة لججه، صعبة مسالكه، وصلنا إلى ساحل هذا البحر ولا بد من جوزه، وأكثر السفن لا يوثق بها في غمراته، ولا يسو ثوب الهداية رأس ما لهم الدعوى، وما حيلة الحائرين غير الرجوع إلى الله في الجهر والنجوى .

ههنا نبأ جليل تحار العقول المستقلة، بفهمه، وتشتاق أن تقف على روحه و حدّه ورسمه، هنا قد بلغنا من سيرة هذه السيدة الجليلة أنّ بعلها كان من دأبه أن يتعبد بعض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه «جِراء» فما هو هذا التعبد وكيف هو، وما الذي ساق نفسه اليه، وأي دين فرضه عليه؟

هذا هو النبأ العظيم الذي تمسك بنا العقول المستقلة إذ تسمعه ولا تدعنا نجوزه إلى غيره من غير أن نوضحه، وإذا أخذنا بايضاحه نخشى أن نبعث بالقارئ عن سياق السيرة، ولكن يقوي عزمنا على هذا الايضاح ظننا بأنّ الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء أكثر ممن يسرد الاخبار سرداً.

إنّ الاديان كلّها رسمت أعمالاً اسمها عبادات ولكن بعل السيدة «خديجة» لم يكن تابعا اذ ذلك لدين لأنّ دين قومه كانت عبادته عبارة

عن تمجيد بعض الاحجار التي هي عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ولم يكن هو قد تعود هذه العبادة التي لهم .

العبادة التي عرفت في الاديان كلها هي بحسب الظاهر أعمال وحركات يرسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم، أما لبَّها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده ويصحّ أن نسميها عملاً روحياً حينئذ .

كان بعل هذه السيدة يأتي في غار حراء بعمل روحي تتوجه فيه روحه تلقاء باريء السموات والارض ومشرف مكة وسائق نفوس العرب إذ ذاك اليها، ولم يكن مقيماً عملاً رسمياً .

إنّ البحث عن سبب تسمية تلك الاعمال الرسمية عبادة في لغتنا يكاف به مشرح اللغة ، والبحث عن اسباب اختيار الاقوام السالفين هذه الصور والاعمال المخصصة تحت اسم العبادة يكلف به مشرح التاريخ ، أما البحث من الاشواق الروحية أو التعبد المحمدي في «حراء» فمكلف به كاتب سيرة السيدة « خديجة » .

العبارة لا تشفي الصدر في تجلية هذه المعاني ولكن شدة ارتباط هذا الموضوع بهذه السيرة داعية إلى السير في هذا البحر العظيم قد سمعنا في سيرة زوج هذه السيدة أنّ روحه كانت من أعلى الارواح ونحن نؤمن بهذا ولكن إذا نحن لم نتعرف بالروح ولو قليلاً فماذا يكون معني ايماننا بهذا؟ لا جرم أن تعرّفنا بالروح ضروري في هذه المقامات وهو أمر يشتهي كل امرئ لأنّ كل واحد منا تخطر في باله هذه المسألة :

ما نحن ؟

هذا سؤال قد علم الذين بعد نظرهم في ماضي البشر أنه من جملة فضل الله عليهم وهو أساس ما يسمى في لغتنا ديننا وديانة وملة واحد الاصول والاسباب في ترقى هذا النوع الانساني وتكملة .

هذا سؤال تحيط به محارة طال وقوف العقل فيها . ههنا مرسى سفينة العقل الذي يحاول معرفة نفسه ومنها يتدنى مجراه لأجل ادراك هذا الجوهر .

مواقف الباحثين كادت تساوى أمام صوبة هذا السؤال، إذ لا يبرهين عقلية قطعية في نفي شيء أو اثبات شيء في جوابه ، ولكن إذا عزت . هذه البراهين لا يعدم عشاق هذا المطلوب آيات كثيرة في الوجودات ومن فضل الله على اهل هذه الصورة البشرية جعل قلوبهم مستعدة لقبول ما تأتي به هذه الآيات من ضياء ولا يُحرمه إلا قليل تُزمن فيهم الحيرة لاسباب محسوسة وغير محسوسة .

هذه الوجودات قد ملئت آيات ، فإذا حالت دونها الحجب لجّ العقل في معارات أو عمايات ، واذا بدت لا يحجبها حاجب نهج في هدايات .

إنّها لمن تأمل مراتب وصفوف، ولكل وجود قوة، ولكل قوة أثر ، واختلاف القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الوجودات وصورها وحيزها، ولما رزق الانسان هذا النطق الواسع وضع أسماء لكل ما لاح له من وجود وظنّ المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهي لم تزد عنها إلا بعداً .

الانسان بعض هذه الوجودات وفيه قوى تحتاج حسب عاداته إلى

ص: 110

سماء فالروح للانسان اسم للقوة العظمى التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا يقول أنا ويقال عنه هو وان عفا أثره .

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيما يدل عليه قد اشتد تباينهم وحار نظرهم في ادراك حقائق هذه القوى التي في الانسان وفي كيفية علاقتها بهذا الجسم البشري الذي متى برحته أصبح لا فرق بينه وبين كثير من صفوف الجمادات والذي يزيد حيرتهم شدة تسامى بعض الارواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة هذه السيرة .

بحثت كالباحثين ، وحررت كالحائرين ، ثم وجدت كالواجدين ، فما الذها على القلب من حيرة عقباها بلوغ الغابة والحمد لله رب العالمين .

إليك حديث نفسي بشأنها : أفقت اليوم من النوم ونصل حسي وشعوري من غلافه ، كما نصل هذا الفجر من غمده ، فوجدتني كأنني وليد هذه الساعة ، لأنني قبل هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الاكوان ، ولم أحس بما فيها من الاصوات والألوان ، ولم أكن أشعر بملاثماتي ومؤلماتي ، فكأنني كنت غير هذا الموجود الجديد ،

أين كانت لذتي برؤية هذه القبة ، وأني بما على هذا البساط ، وأني كان ابتهاجي بزواهر هذه الزرقاء ، وزواجر هذه الغبراء ... ومن حولي الآن أغاني طيور ، ورقص غصون ، وأريج زهور ، وبدائع نقوش ، و ترتيب صنوف ، وحركات نور ، وتجليات سكون ، وفي أنا آثار انفعال من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكري ثم تحرك بها ما اسمه لساني فسمعتني أقول « سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا » .

سبحانك يا فاطر يا باري ، يا مصور ولك الحمد : أنا متذكر الآن أنني

أبصرت هذه المرآة ، وسمعت هذه الامالي أمس لما بزغ الفجر بزوغه هذا فأين ذهب ابصاري وسمعي بين ذينك الابصار والسمع اللذين كانا أمس وبين هذين الابصار والسمع اللذين اتيانني الآن وأنا متذكر أنّ هذا الامر وقع لي مرارا كثيرة ألوما من المرات فما هذا الاحتجاب ثم الظهور، وأين كان الاحساس محتجبا قبل أن عرفته أول مرة؟

رباه من اسائل عن هذا...؟! إنّ هذه الصوامت التي من حولي لا تجيب لعلّها لاتسمعي ، أو لعلّي لا أسمعها ، أو لعلّها لا ذكر لها في هذه المسائل، وكيف أصبر على جهلي بشيء يتعلق بي ، كيف لا أبحث عن أصل احساسني وعن احتجابه؟ ألا يهمني أن أعرف هل أمره كأمر هذه الشجيرات يتحات ورقها ثم يعود ثم تيس مرة واحدة فتصير حطباً ثم رماداً؟ أم أمره كأمر هذه الشمس يظهر نورها على جهة ثم يغيب عنها ثم يعود إليها وهو لا يزول أبداً؟. كيف أقنع للنفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهي لها من الخواص والآثار ما ليس لشيء غيرها في هذه الارض. كلا سأسائل اثم كلا سأسائل .

رفعت رأسي الى السماء فألقيت بواهر ولا مجيب ، وأهويت به إلى الارض فألقيت بواهر ولا مجيب!

فضاء أمامي ، لا أعرف له ساحلاً وحداً ، تارة يفيض نوراً، وأخرى يحتجب بالظلمات، أراني وأرضي محمولين فيه ولا أعرف من هذا المتن العظيم إلا اسماء وضعوها له لا تشرح كنهها ولا تؤذن بدلالة كافية .

تلاعب فيه النسمات لعلّها ناسية أنّ الامر جدّ ، وماهو بالهزل واللعب، وتتناغي فيه الاصوات كأنّها تحسب أنّ في كل موجود دماغا يأخذ بحظ منها ولعل حسابها خائب!

بيني وبين كل ماهو محمول في الفضاء مثلى علاقة قد عرفتها بهذا النور البازغ، فهل بزغ هذا النور لأعرفها أم لتعرفني؟ وهل كانت لى أم كنت لها ام كنا جميعا لهذا النور أم كان هو لنا؟ ولكنني أعرف ينورانه لولاك لما عرفت شيئاً.

سلام عليك أيها النور با حاملاً نعمة المعرفة إلينا وشكرا لمن تسبح أيها النور بجلاله، وتهدينا إلى آيات جماله .

بالنور عرفت ما عرفت ولكن لست ادري كيف عرفت، قد نقشت السموات والارض على عظمتها في لوح لا يكاد يحس في دماغي، فهذا اليمّ الذي يمجّ الآن أمام غرفتي اصبح لا شيء عندي على اتساعه لأنه محدود وهذه الشمس العظيمة التي بدأت تبزغ هذه الساعة قد غدت صغيرة في عيني لأننى احطت بها، وهذه الارض التي اراها كسيريرلي قد تلاشت في نظري إذ وجدتها هي وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليمّ الذي لا ساحل له، ادركت في هذه الساعة أنّ هذه الأشياء كلها مهما عظم حجمها فهي كالصفر بالنسبة إلى مالا يتناهي، فعلمت أن ليس فيما أحاط به حسي ما يدفع عن فكري عطشته .

راقني جمال هذه الكائنات ثمّ حيرني منها أنّها كلّها مسخرة لنا وما نحن لها بمسخرين فهل نحن على صغر حجمنا اكرم معنى منها؟

تركت حيرتي ههنا والتفت إلى هذه الشجيرات التي اراها تتزين كعرائس الانس وسألتها فلم تجب او لم افهم حفيفها، وانثيت إلى هذه اليمامات الراقصة باعناقها فسألتها فلم تجب او لم افهم هديلها، لكنتي استأنست بهذه وتلك اكثر من استناسي بالمتحجرات لاشوق يخالط منها

الجنان ، ولا حركة لها إلا على يد الانسان ، وطال أنني بهذه الخضر المترنحات، والورق المتغنيات، حتى كدت أفقه حديثها ، وأفسر تبيانها ، هذه ذكرتني بمعنى الحياة وأعادتني إلى تقسي وهي ضالتي المنشودة وبها الهدى إلى ما أنشده.

لم أجد غير نفسي يجيبني عن نفسي بعد أن ساح حسّي وفكري في هذه العوالم المحدودة .. إياها ناجيت ، وكلامها وعيت ، فهي التي حدثتني أنني لست إلا ذرة صغيرة جداً سابحة في هذا الفلك، وفي هذه الذرة الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة إلى الذرة الجامعة هي كواحد من ألوف ألوف ألوف ، وفي كل واحدة توجد الحياة ولكن ليست كلها مركزاً للحياة لأننا نجد أن ألوف ألوف من هذه اذا أفسد وضعها لا تزول الحياة ولكن هناك بعض ذرات اذا أفسد وضعها تزول الحياة كلها من جميع هذه الذرات التي يتكون من مجموعها الجسم فهذه الذرات القليلة التي هذا شأنها هي مركز الحياة.

أعظم مجالي الحياة في نظري هو الادراك الفكري وهو قارّ في ذرات قليلة لا يحاط بها .

أدهشني هذا الموقف الذي وصلت اليه ، وهذا المرأى الذي وقفت عليه ، حيرني من هذه الذرات أن تسع صور السموات والارض وصور أعمال البشر منذ كانوا إلى اليوم ، وحيرني منها أن هذه النتائج العظيمة التي تصدر عنها إنما تصدر إذا كانت بوضعها المخصوص وما أسرع زوال هذه النتائج إذا اختل وضع الذرات.

رأيت هذا الامر العجيب ولكن لا مستقر للفكر عند هذا المرأى اذ قصاره

أني عرفت شيئاً صغيراً جداً يسمع أشياء لا تحصى مع أنني انما أبغي أن أعرف ماهو ذلك الشيء الصغير مبناه جداً جداً العظيم معناه جداً جداً؟ ماهو ذلك الشيء الذي وجوده على حالة مخصوصة يكون هذا الجسم متحركاً حساساً يحيط بالسماوات والارض وبتغيره يفدو هذا الجسم تراباً صامتاً صابراً تحت الاقدام : ما هي تلك الحالة المخصوصة؟ وما هو تغيرها وكيف نظامها؟ هل هو في احاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له؟ هل هو يحتاج إلى هذا النظام بعينه أم يستطيع أن يؤلف نظاماً آخر متى تغير نظامه هذا وان كان تابعاً لهذا النظام بعينه فهل وجدت هذه الصبغة لنزول بأسرع من لمح البصر بالنسبة إلى عمر غيرها على ما يتخلل وجودها من الاحتجابات؟؟

محارات بعد محارات ، ولكن تلوح خلالها آيات ، اذ قد ملأنا رب الوجود أمثالاً ، وأتاحت لنا معرفتنا بالامثال أن حقائق الاشياء محتجبة، الظاهر إنما هو آثارها : فهذا النور الذي يملأ الفضاء لا تعلم كنهه ، وهذه الشمس وما حولها لا ندري كيف قامت ، قصارانا أننا عرفنا سببها في هذا الفضاء، لا يسندها عمد ، ولا يعتربها سكون، وهي مع ذلك سائرة بنظام ، ودائرة بإحكام ، لا تخرج عن مستقراتها، ولا تحيد عن مجاريها ، ولكن ما هو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام؟ سمو شيئاً من ذلك بالجاذبية فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة؟

إن قصارى ما نعرفه من هذه المركبات أنها قابلة للتحلل فإذا حللناها انتهينا إلى عناصر قليل عددها لا تتحول ولا تتحلل هي الامهات ثم هي تنتهى إلى أم واحدة لا نعرف من أمرها شيئاً!

المشاهدة هي أكبر وسائط معارفنا، ولكن الة هذه المشاهدة عاجزة

عن أن ترينا الاشياء كما هي ، ولو اقتصر الامر عليها لكانت علومنا بهذه الكوائن خطأ من أولها إلى آخرها .

هذه الشمس التي نحن وأرضنا في نظامها الكبير أقل من حبة رمل في جبل عظيم - ليست أمام المشاهدة الخصوصية لكل واحد منا إلا كمصباح بسيط يشتعل ساعات وينطفئ ساعات، وماهي إلا بحجم كرة مما يلعب بها اللاعبون !

على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وعلى خلاف وضعه ، فقد نرى واحداً وهو متعدد ، وبسيطاً وهو متركب ، وساكناً وهو متحرك ، وصغيراً وهو كبير ، حتى نصل إلى ما هو صغير جداً فلا نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتدينا للآلات الصناعية التي تساعد بواصرنا الطبيعية ايما مساعدة .. بهذه الآلات استطعنا أن نرى أنواعاً من الحيوانات كانت خافية على الابصار دهورا دهاير . ولعلنا سنهتدي إلى ما يرينا أصغر من تلك الصغائر . ونحن في مثل هذه الهدايا العظيمة التي جاءتنا هدية من الفاطر على يد التجارب لا نجد ما يمنعنا من الظنّ بأننا مهما استمعنا بالآلات نبقى في مشاهداتنا بعيدين عن كشف الاشياء كما هي وتبقى أشياء كثيرة خافية على ابصارنا والآثنا مهما بلغنا بها.

فما اكرمك يا عيني عليّ : أنتِ أنتِ كنت سبب ارشادي إلى حقيقتي إذ لم تريها لأنتي عرفت بالتجربة أنك مسكينة عاجزة لا ترين كل شيء ولا ترين شيئاً مما ترينه على وضعه وحقيقته فاضطرت أن أقيس وجودي على وجود غيري لا جرم ان لي حقيقة مستترة عنك وراء وجودي الجسمي الذي تشاهدينه كما ان وراء النور حقائق مستترة ولا جرم ان حقيقتي هي سبب وجودي كما ان الحقائق المستترة وراء النور هي سبب وجوده .

إنّ الحقيقة العظمى التي هي باطنة من وراء الاشياء كلها ، وظاهرة عليها كلها هي حقيقة واجب الوجود، حقيقة من لا بد لوجودنا من وجوده ، ولا بد لتشكلنا وتنوعنا من فيض تخصيصه وجوده .. هي حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لأنّ الحياة التي نعرفها منه صدرت ، وله العلم الازلي الابدي لأنّ العلوم التي نعمهها من فضله أتت، وله الارادة الازلية الابدية لأنّ الارادة التي نجدها من لدنه أهديت ، وله القدرة التامة الشاملة لأنّ القدرة من عنده نشأت هي حقيقة من لا مثال له في كمال وجوده ، وعنه صدرت امثلة الكمال في الوجودات الظاهرة .. هي حقيقة الباري، المصور الذي برأ حقيقة مثال كامل حيّ سميع بصير مريد وجعل حجاب هذا الهيكل البشري .

أصبحت لا أرتاب في أنّ الحقيقة العظمى هي التي تهدينا بآثارها ويامداداتها إلى كل شيء ممّا نعرفه ، ولكن لشدة ظهورها الذي قد يعادل البطولون ربما تخفى ، فإذا نطلب معرفة النفس تظهر آياتها العظمى فسبحان الله من عرف ربّه فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه .

عرفت الآن من أمر نفسي أو روحى أنّها لا يعرف كنهها ولم يزدني جهلي بكنهها إلاّ إيماناً بحقيقتها الجليلة المستقلة عن الجسد لأنّني لم أعرف من أمر كل جزء من اجزاء الجسد إلاّ مشابهته لهذه الجمادات التي أمامي وليس فيما أمامي شيء يجمع فيه ما تجمع هذه الروح . وقد حاولت كما يفعله بعضهم أن انسب هذه الخواص إلى المجموع المركب من هذه المواد على نظام خاص فلم يسلس له فكري بل جمع عنه كثيراً لتذكره النظام الشمسي وذهابه إلى أنّه إنّما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تقم هي به ..

فما نفسنا أو روحنا إلا جاذبية النوع وكهربائية الخصائص والمزايا، وهي هي مؤلفة الهياكل وناظمتها. لا بدع في ذلك فالكوانن كلها من اصل لا يرى ولم تفصل عنه ولا يكون الاصل تابعا للفرع ولا ضرورة لتغير الاصل اذا تغير الفرع. ولا يصعب فهم هذا على من عرف كيف يتجسد ما لا يرى فيصير مما يرى، وكيف يتلطف ما يرى فيصير مما لا يرى. الصناعة بهذا ضمنية، والتجربة فيه هادية امينة، ولا يصعب ايضاً على من عرف آيات النفس التي تظهر في بعض الاشخاص لتعلم بها أنّ لها شؤوناً غريبة جداً فوق المعهود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس، سبحانه الله كم لها من انطلاق منه يظهر معه أن لا حاجة لها بهذه الآلات العضلية والعظمية والعصبية.

نحن شاهدنا من هذا كثيراً، وشاهد مثلنا خلق لا يحصون، والباحثون المحققون شاهدوا ايضاً أو نقل اليم ثقات كثيرون مجموعهم يدفع عن تفوسهم الريب وما علمنا أنّهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق اسباباً جلية! غاية ما صنعوا أنّهم وضعوا لبعض هذه الامور اسما وظنّ القاصرون أنّ هذه الاسماء تحل الاشكال، وتحكي حقيقة الحال!

وسمعنا سماعاً لا يستطيع الريب منه البقاء أنّ اشخاصاً يشفون امراضاً معضلة بغير علاج ولم يقل لنا علماء الابدان في تحليل هذا الامر إلا أنّه شفاء بالوهم فيا عجباً ما هو هذا الوهم الشافي ولماذا لا يشفى بالوهم كل شخص!؟

حالة المنوم تنوياً مغنطيسياً هي من الادلة الصريحة في هذا الباب على شدة غرابة أمر هذا الموجود الصغير الكبير واستعداده لخرق الحجب الكثيفة، وقد القيود الحسية، وعمله الاعمال العظيمة من غير حركة يديها او واسطة يأتيها!

هذا حديث نفسي وخالصة ماظهر لي أنّ الروح خلق مستقل ذو ظهورات فائقة ، واحتجابات محيرة ، هو اقسام كثيرة ، نصيبنا منه عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاه عديم ، هو الحي السميع البصير المرید المستعد للظهور والاجتنان، المصنوع آية كبرى دالة على جامع الاكوان .

وظهر لي أنّ خصائص الروح الشوق ، ولو قلت إنّ الروح هو الخلق ذو الشوق لما وجدت هذا غريباً في تعريفها . ولكل روح شوق بناسبها وعلى نسبة شوقها تكون رتبها وصفها في عالمها الذي هي منه ، وفي عالم المثال والعيان الذي دفعها إليه شوقها إلى الظهور .

كانت روح هذا السيد بعل سيدتنا « خديجة» من اعلى الارواح وكان شوقها ازكي شوق واقدسه كانت عظيمة الشوق إلى رؤية فاطرها ولكن هل الفاطر عز وجل يرى ؟ لعلها حارت زمناً في هذا الأمر، ولعلها قالت لو كان يرى لكان محدوداً وكيف يدخل في حد من برأ الحدود ! ولعلها عادت إلى زيادة التبصر فقالت هل الرؤية مخصوصة بهذه الباصرة ؟ وهل يشترط أن يكون المرئي متشخصاً ، أليس القصد من الرؤية العلم ، ألا يمكن العلم بالفاطر مع انه غير متشخص ؟

هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح العلوية التي كان مظهرها وبيتها الصوري في بيت « خديجة» ومطافها ومطارها ملكوت الحق ، ملكوت الوجود الاعلى .

ولعلها يئست من أن تجد فيما حولها ما يروي اوارها من معرفة فاطرها الذي اشتدّ شوقها اليه بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى اصبحت

زاهدة في كل رؤية وكلّ سمع لأنّها تريد أن ترى وتسمع الذي إليه طارت شوقا ولذلك رأينا «محمدا» (صلى الله عليه وسلم) قد حبيت إليه الخلوّة والانفراد ولاسيما اذ شارف الاربعين من سفيه وكان لغار «حراء» الحظ من هذه الروح الحائمة على حبيها وطيب شوقها

من ذا الذي يعلم غير الله ما كان يقوله هذا المنقطع في ذلك الغار ولكن يصحّ لنا أن نظنّ بأنّه كان يساقط الدموع ويناجي المقصود المطلوب بقوله : ربه ربه : كيف الوصول إلى حضراتك كيف السبيل : إلى مشاهدات تجلياتك ؟ إليك أيّها المولى من مزيد حبي قيامي وقعودي وركوعي وسجودي ، ومن مزيد شوقي ذرف دموعي، وفرط ولوعي، رحماك رحماك يا ربّي كبد تذوب وعين تسيل، وفكر يتدله ، وانت انت مطلوبي وانت انت ذو الكرم والجود !

على هذا المثال كانت حاله ، وهذا هو العمل الروحي الذي شغل به باله ،وقد فهم القريبون من فهم الروح مقدار فوائد هذه النجوى القدسية وأما البعيدون عن هذا الشوق فيعجبون وينكرون ، وليتهم يتذكرون محن الناس وتدلّياتهم بهذه المتغيرات من صور وأشكال لا تتوقف الحياة عليها، ولا يجدون الطمأنينة لديها ، هذه المحن والتدلّيات أقضي بالعجب لعمر الحق لو كانوا يعقلون . وأما ابتعاد روح عن المحسوسات في سبيل الاقتراب من حضرة من لا تدركه الابصار فسعي وراء مبتغى جليل .

العمل الذي فيه لذة لا- مضرة على الغير فيها لا- ينكره عقل، ولأرباب الاعمال الروحية لذات لا يستبدلون بها كل لذات المفتونين بالمحسوسات

فحسى أن يتذكر العقل المستقل هذا المعنى فلا يكبر عليه أن يفهم أقل الحكم في الاعمال الروحية وهي لذة أربابها و انتعاشهم وتفتح بصائرهم لرؤية المعالي كما هي فلا يحزنهم شيء بعد في نيلها ولا تقف همهم أمام حزن في طريقها .

كانت السيدة « خديجة » شديدة الفهم وعظيمة الثقة ببركات هذا العمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عتبته، كانت عظيمة الايمان بالقوة العظمى، والحقيقة الكبرى، فلم تر بأساً بل لم تر إلا الخير يتوجه وجه زوجها الكريم تلقاء سوانح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت الذي لا حد له.. كانت قد عرفت أنّ هذا الغار في «حراء» الفارغ من كل كان حريا مشتهى حسي كان حرياً أن يكون مثابة لهذا الشيخ الشريف الحامل قلباً قد فرغ من كل شيء غير الوله بالمعالي القدسية، والشوق إلى الحضرات الربانية . فكانت تبارك على هذا النار الفارغ وتساءل الله أن يملأه معالي وبركات وقد أجاب الله تعالى كرمه سؤلها وكتب «حراء» في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بتمجيد الناس وتحياتهم ومحامدهم . وكم قد ترجمت فرائح الشعراء عن احتراماتهم وتكريماتهم لهذا الغار أو لهذا المطلع الذي فاق بدره البدور، قال قائل منهم :

سلام عليك حراء الشهير *** أمطلع ذاك الضياء العظيم

سلام فؤاد ذكور شكور *** بقدر الذي قد صحبت عليم

**

لأنت يتيمة عقد الوطن *** ففبك أضاء السراج المنير

بذكراك يلقي الفؤاد السكن *** فذكراك ذكرى عطاء كبير

ص: 121

الفصل السابع عشر - (بين روح وروح) أو (بدء الوحي)

في « حراء » حدثت الحادثة الاولى من التأريخ الجديد الذي سنرى فيه بعل السيدة «خديجة» فائقا فواقا عظيما مدهشا : وهذه الحادثة العظمى التي هي مبدأ هذا التأريخ هي أنّ روح محمد (صلى الله عليه وسلم) اجتمع هناك في « حراء » بروح غير بشري وأبلغه هذا الروح الغريب رسالة شأنها عظيم .

نحن في الفصل السابق ذكرنا من أمر الروح ما فيه كفاية، ذكرنا فيه ما لعل القاري. ينشرح به صدره إلى القول بوجود موجودات ذات حياة على أنواع شتى ولا يشترط في بعضها أن تكون لها أشباح كالأشباح البشرية . وهذا قد سبقنا البشر كلهم إلى القول به ولم يشذ عنه إلا قليل وهم كلّهم قائلون إنّ بين الروح الذي هو انسان وبين الارواح الاخرى اتصالات، فأنا كاتب هذه السطور لست بمبتدع خبراً ليس له مثال بذكر هذه الحادثة التي قد يراها غريبة من يحبون التباعد عن الروحيات ،

ومن يؤمنون بها أحياناً ويكفرون بها أحياناً من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون .

هذه حادثة عظيمة في السيرة التي نحن آخذون بتحريرها ، ونحن مقتنعون بوقوعها، ولا يدعونا إلى استماع هواجس المنكر إلا الحرص على القيام بحسن المرافقة . فإن كان المنكر ينكر عالم الروح من حيث هو فالحق أنّ حيلتنا البيانية معه قليلة ، ولكنني اظنّ أنّ محادثتنا إياه بهذه المسألة في الفصل السابق قد تجديده . وإن كان ينكر العلاقة بين الروح الذي هو الانسان والأرواح الأخرى فليس لنا ما نتوسط به إلى ابلاغه هذا المشهد غير نفسه ، فليرجع إليها كثيراً وليدقق في حديثها جيداً . وإن كان ينكر صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) في حديثه بهذه الحادثة مع أنّه لا ينكر وقوع مثلها لغيره فالخطب في مذكرته سهل .

كان «محمد» صادقاً شديداً الحرص على الصدق واشتهر منذ حدثته بلقب «الامين» ، قد عرفنا صدقه كما عرف الناس شجاعة أناس من الشجعان ، وكرم أفراد من الكرماء ، وعلم جماعة من العلماء ، وكما عرف بنو اسرائيل صدق الانسان موسى الذي كان قد سمع الكلام الالهي ، وظهرت له الارواح العلوية ، وكما عرف النصارى صدق الانسان عيسى الذي كان روحاً من الله ، وكما عرفوا صدق تلاميذه وأنصاره الذين حكوا حكايته وبثوا بشارته .

هذا الصادق الامين وجع ذات يوم من «حراء» منتقع اللون ، مرتجف الصدر ، يعلوه اضطراب الوجل الحائر ، وخشوع المخبت الصابر، فما وقم نظر السيدة « خديجة » عليه حتى عرفت أنّ أمراً عظيماً قد ألمّ به

فخفق لأول وهلة قلبها ، وساءلت بسرعة البرق نفسها : ماذا أصاب حبيبي ما خطب ذلك القلب الذي لا تفزعه الرجال ، ولا تجزعه الاهوال ؟ ما بال ذلك الصدر المبسوط تشنيه الرجفات ، وما بال ذلك الطرف القرير تكاد تبادره العبرات ؟ رباه : رباه ! ماذا اصاب حبيبي ؟ قل لي أيها الحبيب ما ذا أصابك ؟ حنانك قل لي ! قل لي !

- دثروني . دثروني

-لا صبر لي عن معرفة الامر الآن فقصه عليّ

-بينما أنا في «حراء» اذ جاءني روح فقال لي أقر أقلت له «ما أنا بقارى» فأخذني وغطني غطة (1) وقال لي «اقرأ» قلت « ما أنا بقارىء » ثم غطني الثانية وقال لي اقرأ فقلت « ما أنا بقارى » . قال لى « «أقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ *»

-ألم تسأله من أنت ، ومن جاء بك ، وماذا تريد مني ؟

- سمعته يقول أنا جبريل جئت ابلغك رسالة ربك

هذه هي الاولى من الكلمات التي سمعها محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذلك الروح الذي ظهر له باسم جبريل وهو من النوع المسمى ملائكة والآن قد فتح لصاحب «حراء» بابان: باب حيرة جديدة وباب هدى فأما الحيرة فظاهرة يكاد يراها كل من سمع هذه الحادثة فإن ظهور الارواح غير البشرية لافراد النوع الانساني ليس من المألوف، فإذا صادف أحد

ص: 124

1- ضمنني بشدة وضغط

الافراد شيئاً من هذا القبيل لا يقوى طبعه البشري لأول وهلة على تحمل مواجهته والانس به . كل واحد منا يعرف هذا من مفاجأة الامور التي لم تكن تخطر في باله مع أنّها من الامور التي تقع كثيراً فكيف الحال بالامور التي وقوعها نادر إلى حد أن بعض الناس لا يصدق بوقوعها .

إنّه ليخيل اليّنا أن صاحب «حراه» قد دهش لما سمع صوت ذلك الروح يناديه «اقرأ»، يخيل اليّنا أنّه قال في نفسه : رباه ماهذا الذي اسمع ؟ رباه ليس ههنا من بشر فهل يتكلم غير البشر ؟ رباه ماذا يراد بي ؟ إنني أعلم أنّي في يقظة لا في منام، وإنني اسمع كلاماً لا ريب فيه، وإنني أحسّ بضغوط يضغطني ولا عهد لي بمثل هذا من قبل !. رباه إنّ هذا أمر يدهش فكن اللهمّ عوني، وخذ بيدي ، وثبت فؤادي ، وقوتي على مواجهته إذا عاودني .

نعم إنّّه ليخيل إليّنا أنّ المفاجأة بذلك الروح هكذا كان يتناجى في نفسه ويناجي ربه بمثل هذه الكلمات وهو ذاهب إلى خديجة فلما لقيها قال «دثروني دثروني». واختصر لها الحديث اختصاراً .

دثرته «خديجة» وجعل العرق يتصبب منه . وقد عاوده الروح بعد ذلك . وقال له «يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ * قُمْ فَأَدِّزْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمُنْ تُسْتَكْبِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ *»

إنّ من يفاجأ بمثل هذا جدير بالحيرة وهذا ما أشرنا إليه هنا ولكن مع هذه المفاجأة قد أونس باسم ربّه فكان هذا الاسم الجليل حريّاً أن يكون دواء شافيا من تلك الحيرة وكافياً أن يفتح باب الهدى والطمأنينة

الروح «جبريل» يقول له أنا من عند ربك ، جئت أبلغك رسالته، جئت ألقى عليك وحياً من عنده ، وفي هذا الوحي الذي جاء به مفتاح لتلك المغالقات التي اشرنا إليها آنفاً التي كانت تقف أمامه دائماً.. في هذا الوحي مبدأ ارشاد وتعريف له بربه خالق الانسان، في هذا الوحي اهاية بفكره لتناول معارف عليا ، وتعاليم عظمى، في حقائق الوجود .

كانت الحيرة تردفها الحيرة . وأما هذه الحيرة فإن الهدى يردفها لأن العناية الالهية ظهرت أتم ظهور ، والعطاء الرباني سُدِّمَ جلياً لتلك اليد التي كانت مرفوعة في «حراء» تلقاء السماء .

وكان أول معراج عرج بصاحب هذه اليد عليه إلى تلك الحضرات القدسية هو اعلامه علم اليقين بأرواح عالية تتكلم هي غير الارواح الانسانية الحالة في هذه الصور البشرية وذلك بجعل واحد من هذه الارواح واسطة بينه وبين مفيض الحياة والعلم والارادة .

هذه عنابة كبيرة جداً لم يرو التاريخ وقوع مثلها إلا لقليلين : منهم النبي ابراهيم، والنبي موسى، والنبي عيسى (عليهم السلام) .

يقول له الروح «جبريل» « «أقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علقٍ» فهذا القول العربي الجليل يصور له من النشأة المادية في خلق الانسان صورة يتجلى فيها عظيم قدرة البارى المصور، وعظيم ضعف هذه الصورة البشرية لولا روح الله الممد لها .

بقول له الروح «جبريل» « «أقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم»، وهذا القول المجيد يصور له من النشأة الروحية في كون الانسان صورة يدهش الالباب فيها عظيم صنع الله في ترقية

الانسان بواسطة قصبة لا يؤبه لها لدى النظر . نعم بواسطة قصبة نعني بها القلم كان الرقي العظيم العقلي لهذا الكائن الذي خصت العناية الازلية نوعه بمزيد خصائص.

وغريب في الأمر أنّ المواجه بهذا الخطاب لم يكن من ارباب اليراعة بل كان أميا لا يعرف القراءة ولا الخط بالقلم فما معنى أن يكون أول وحي يوحى اليه هو الامر بالقراءة والتنويه بالقلم .

لا بدع . لا بدع . ان معنى ذلك هو تكرم الله عز وجل على البشر باعطائهم آية أخرى يفقهون بها أنّه قادر أن يعلم من لدنه بغير ما عرفوا من الوسائط من شاء ما شاء إذا شاء . وأن يجعل غير القارى قارئاً ولكن يقرئه بالروح صحفا ربانية قد أنزلها الله على قلوب البشر بأساليب شتى أجلها وأعلها هذا الاسلوب

ما أجل هذه العناية وما أجدر « خديجة » بالسرور الذي ليس فوقه بها ولكن هل عرفت هذا السر الرباني تماما ؟ نعم كان قلبها القوي خليقا أن لا يفزع أمام هذه الحادثة التي هي غريبة في ظاهرها بيد أنّها كانت محتاجة أن تطرق تفسير هذا السر وهذا المظهر الجديد من أبوابه .

ص: 127

الفصل الثامن عشر - (عظم المنة باتساع المنة)

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قوي القلب جداً تدلّ على ذلك سيرته كلها من أولها إلى آخرها . ولكن مهما قوي قلب أمام الحوادث المعتاد وقوع أمثالها بين الناس فلا يدلّ ذلك على أنّه لا تأخذه روعة أمام صوت غير بشري ، يهيب به إلى أمر غير حسي . لذلك لا ينبغي أن نستغرب الروعة التي أخذت لأول وهلة ذلك القلب القوي العظيم فإنّه دعي من لدن الحق بواسطة الروح إلى وظيفة تنوء بحملها المنن ، ويجب بحسب حدودها قلب السنن .

إي لعمر الحق لا غرابة في روعة تنقض الظهر ، إذا حدثت لمن نودي هذا النداء بهذا الامر ، وبديعي احتياج هذا المأمور إلى شرح الصدر ، والتأييد ورفع القدر ، ولا بدع إذا ضمن له كل تأييد من أراد أن يكون قلبه محلاً لتنزلات وحيه الأعلى

نعم أمت الروعة بقلب صاحب « حراء » لما نزل عليه الروح بما نزل به عليه وقد صرح لخديجة بذلك وقال لها « لقد خشيت على نفسي » ولكن التأييد حافٌّ به ، والايناس صافٌّ من حوله ، وناهيك أنّ في منزله

الذي اليه يثوب روحاً شريفاً كأنَّ الله قد أوجده خاصة لتأييده وشرح صدره باديء بدء هو روح السيدة « خديجة ».

لم تكن هذه السيدة أقوى منه من بطلها الكريم ولكن هو واجهته روائح الجلال مواجهة، فأخذته بين حيرة وشوق وخشية عجز عن القيام بالوظيفة . وأما هي فسمعت بالامر سماعاً ، ووجدت للتفكر فيه مجالاً ، ولا يناس الرفيق مقالاً.

ولو بدعت امرأة بما بُدعت به هذه السيدة من هذا النبأ العظيم وكان ينقصها ما حلها الله به من الفطنة وبعد الادراك وسلامة الفطرة وما أعطها من قوة التميز في وزن الامور ومعرفة مقاييسها لتراخت مفاصلها ووهت قوتها أمام هذا الحادث الغريب . ولكن العناية الازلية التي لها اليد في اظهار هذا المظهر الاعلى قد أتمت العمل من أوله إلى آخره ونسقته على أحسن منوال فلا بدع بما نراه في هذه السيدة من الصفات التي تساعد على استقبال أمور عظيمة لأنها خلقت لتكون زوجة لذلك الرجل الذي سيأتيه أعظم الامور ويأتي به .

تفكرت «خديجة» في هذا الامر وأخذت تسائل نفسها بنفسها وللأمل ههنا وجه والخوف وجه : فالأمل يقول لها إنَّ الامين لصادق وإنَّ روحه تزكية قوية لا سلطان لروح الشر عليها والروح الذي جاءه إنَّما بلَّغه باسم ربِّه أنه اصطفاه رسولاً والله على هذا قدير ، وباختصاص من شاء بما شاء جدير ، وأيِّ شيء يمنع ربَّ العالمين إذا أراد أن يتكرم على هذا البيت بانزال وحيه فيه فيغدو بعد الآن مشرقاً لا تضاهيه المشارك

يفيض النور على القبائل والشعوب ، انت اللهم على هذا قادر إذا أردت ولا مانع لما أعطيت ! والوجل يقول لها ما هذه الحال التي أخذت حبيب قلبي فراغته ، إنني لأخشى أن يكون أمراً جسمانياً بحتاً كما قد يعرض للأفراد ، إنني لأخاف أن يصبح هدفاً لري الاضداد. ولكن سرعان ماغلب الأمل على الوجل ، والمنة على الضعف ، ووشكان ما تبدت لها وجوه الادلة على أن ما أتى بعلمها الكريم هو يريد خير عظيم، ومقدمة فلاح عميم ، وكانت أدلتها على ذلك عقلية ونقلية تقدمت العقلية منها على الثانية .

الفصل التاسع عشر - (الأدلة العقلية)

لما قال « محمد » (صلى الله عليه وسلم) لخديجة « لقد خشيت على نفسي » قالت له « كلا والله ما يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، ونقري الضيف ، وتمين على نواب الحق ، و تصدق الحديث ، وتؤدي الامانة ».

إنّ هذا الكلام الذي صدر منها على الفور هو نتيجة معرفة سابقة ، هو نتيجة تفكر جميل قد أعطى الثمرة سريعاً ، هذا الكلام الوجيز يؤلف استدلالاً عقلياً من أعظم الاستدلالات فإتته قد أتى ساذجاً نظيفاً لا غبار عليه من التكلف ، ولا شيء منه بواقف أمام الذهن ، هو قياس باهر النتيجة ، مطوي بعض الحواشي ، ومن أبدع الأقيسة نظماً ، ومن أجملها وقعاً ، بيد أنّ الافهام كدأبها في التفاوت ، وعلى سنتها في التخالف ،

لا

يستغني كثير منها عن تشريح هذا القياس لتطلع على قلبه وأعضائه واحدا واحدا. فحينئذ يلوح لها انطواء الافادات الغزيرة، في هذه الكلمات الوجيزة، وتعلم من قريب أنّ الحكمة بيد الله يؤتيها من يشاء.

(1)

يخرج من كلام هذه السيدة أنّ النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع كلّها. ولذلك يحب كلّ ما يؤدي إلى تسامي هذا النوع ويخلق الاسباب لذلك ويأخذ بيدها لتتغلب على ما اظهره بحكمته التي لا نعلمها من أضدادها.

(2)

ويخرج من كلامها أنّ الله عز وجل مطلع على اعمالنا ومجاز عليها وأنّه يحب متّا أعمالاً ويكره أخرى وأنّ الذي يحبه متّا على حسب تفكرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة الضعفاء.

(3)

ويخرج منه أنّ من يفعل الخير لا يأتيه إلا الخير. والخير الذي نعبر عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل اعمال كلها من باب مساعدة الانسان للانسان فهذه المساعدة في نظرها كل خير أو هي كل الخير فهل يكافىء الله فاعل الخير بغير الخير؟ إنّ هذا لا يكون على حسب تفكرها.

(4)

ونتيجة قياسها أو أقيستها أنّ هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الضير وأنّ الله عزّوجلّ سيتفضل بتأييد هذا المأمور في حمل هذه الامانة على ثقلها وصعوبة تأديتها لقوم ينكرونها ولا يعرفونها.

ص: 131

الفصل العشرون - (شرح حكمة السيدة خديجة)

ان محيط جلال الله الذي ليس له حد لا تبلغ سفن العبارات شيئاً من سواحل التعريف به حق التعريف . وإنّما هي لتستعين النفس على بث حبّها له عزّوجلّ وتمجيدها إيّاه ويزداد شوق النفوس إلى الكمال، وتعبدها لذلك الجلال ، لقد عزت صفات واجب الوجود عن أن ترسمها اللغات، كما عزت ذاته عن أن تحدّها الجهات، وإنّ حقيقته لهي فوق المجاز والاستعارات .

لكن الانسان خلق عظيم الشوق إلى تصور ربّه ، وغير صبور عن الاشارة إلى وصفه ، وليت شعري أنّي يبلغ الواصفون صفة من كنهه محتجب في خزائن الغيب الاعظم ؟

لقد نفذ صبر الانسان في هذا الامر من قديم الازمان وأقدم على وصف ربّه فلم يجد غير الاستعارة حيلة فوصفه بما يتصف به الانسان نفسه ولذلك وقع تناقض كثير في أوصاف الواصفين لأنّ رب العالمين غير حادث ولا تشبهه الحوادث تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ولقد ظهر بين البشر رجال منهم أتتهم الارواح وكلمتهم من عند الله فأيد كلام الله بواسطة الروح مادرج عليه الناس من الاستعارة فأصبح هذا الأمر عامماً لا فرق بين الناس فيه إلا فيما اختلفت فيه عباراتهم .

والافكار المستقلة تؤدي إلى قبول هذا الاسلوب أيضاً لأنّ التفاهم في هذه الابواب لا يستغنى عنه ولا يمكن إلاّ بالعبارة

إلى الله سبحانه يرجع كل شيء فهو أنشأ الانسان على هذا المثل ، وهو علمه ماقد عرفه الى الآن ، وخالصة ما عرفناه من ظواهر التكوين أنّ البارى المصور عزوجلّ لما أراد أن يكون هذا الانسان مميزاً عليمياً أظهر الاشياء أمامه مبنية على التضاد ، وجعل تميز الاشياء بأضدادها ، وأودع فيه ضدّين جعل عليهما مدار سيرته كلها في حياته هما الاستحسان وضده ، وجعل مع الاستحسان الشوق والحبّ ، ومع ضده النفرة والبغض . واقتضى ناموس التضاد الذي عليه مدار تمييز الانسان أن تتخالف أفراد هذا النوع في الاستحسان وضده فكثرت أسباب تخالفهم فنشأ بينهم الضدان المسمي أحدهما خيراً والآخر شراً . واحتاجوا إلى جواذب تجذب الخير ودوافع تدفع الشر فرجعت كل معارفهم إلى معرفة هذه الجواذب والدوافع . ومن نمي منهم علمه بها وسما عمله على موجب هذا العلم سموه حكيمياً .

و هل جائز أن يكون بعض افراد الانسان حكيماً و البارى غير حكيم ؟ كلا، ثمّ كلا بل ليست حكمة الانسان إلا من الله ، والله هو العليم الحكيم .

نعم ، بيد أنّنا نفقه معنى حكمة الانسان لأنّنا نميزها بضدها وليس لعلم الله وعمله وإرادته جل جلاله من ضد .

انظر تجدنا نعرف الاسرار في كل دقيقة من الدقائق التي يؤلف الانسان منها شكلاً من الاشكال لأنّ الانسان إنّما يصنع ما يصنع للاحتياج والاستفادة وأما الذي اراد ظهور الاشياء بهذا التنوع فلم يرد هذا لحاجة او جدوى تعود عليه . ثمّ انظر تجد أنّنا نسمى ما يصنعه الانسان لا لفائدة عبثاً ولا نسمى عمل المستغني عن الفائدة عبثاً مع أنّنا لا نرى فائدة في عمله لا له لاستغناؤه وتقديسه ، ولا للمصنوع من معدن و نبات وحيوان وغيرها .

فإذا أمعنت النظر يظهر لك أننا لا نستطيع أن نعلم ماهي حكمة الله في ظهور الاشياء على ماهي عليه ولكن نقص هذا العلم لم يمنعنا عن القول بأن له حكمة في كل شيء وتعلم من هذا وضوح عجز العبارة في كشف خدور هذه الحقائق مع عدم الاستغناء عنها .

ثم إذا رجعنا النظر إلى علاقة هذه الظاهرات بالانسان يبدو لنا أمر يحمل على مزيد التفكير والتذكر ذلك أن كل شيء منها يفيد الانسان حكمة إذا تصدى لقراءته على صفحات الاعتبار ، ان الانسان ليرى إذا تأمل نظاماً بديعاً في هذه الظاهرات ويرى له نصيباً في كل شيء منها .

فمن هذا الوجه قد يصح لنا القول بأن من جملة حكم الله تعالى في هذه الظاهرات تجلي آياته وكرمه بجعل علاقة النفع والانتفاع بين هذه الانواع والصنوف التي لا تحصى وبين هذا الكائن الصغير الجرم .

هذه العلاقة ظاهرة يكاد يراها كل من تأمل في استفادتنا معشر البشر من كل هذه الظاهرات . أما محبو الحكمة فيعمقون نظرهم ويتلمسون الاسرار في تشكيلاتها وتآلفاتها على هذه الوجوه والاضاع . ولو فرضنا أنها جاءت على غير هذه الوجوه لتوجهت انظارهم إلى استجلاء فوائدها ثمة أيضاً لأنها كلها من الله ، وما من الله لا يكون عبثاً بل يستفيد منه الانسان حكمة أو شيئاً آخر فكان الانسان أكرم من كل هذه الظاهرات وكأنه هو المقصود بأن تنكشف له الحكم والاسرار الربانية .

هذا هو الاساس الذي أقيمت عليه قواعد حكمة الانسان وهو مبدأ سيره لمعرفة حكمة الله الحكيم الاعلى جلّ وتقدست أسماؤه .

حكمة الانسان في الحقيقة هدية ربانية يختص بها مرجع الاشياء من أراد اظهاره سليم الفطرة، حاد الفكرة، فهو يكون كثير الذكر، قليل النسيان، والكائنات كلها عبر، وتعليم لمن تذكر. وليست حكمة الانسان تلقيناً يقدم له كل مرة، وبؤاته كل احد في كتاب يكتب، او خطاب يخطب، لكن مع أنه لم يكن أحد مستعداً أن ينال الحكمة نجد الحكمة ذات بركة شاملة تزور بيوت غير الحكماء ايضاً فتملأها فوائد كثيرة من غير أن يشعر أربابها بحركتها وحركة حاملي لوائها

كانت السيدة « خديجة » ذات نصيب من هذه الهدية العليا الربانية هدية الحكمة، وقد رأى القارى، أنفا شيئاً من حكمتها وجميل تفكرها وتذكرها ونحن في هذا نشرح ذلك الاجمال، وتزيد المقام حظاً من ذلك الجمال:

(1) فهي رأت أن النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع وأنه سبحانه يحب كل ما يؤدي إلى تسامي هذا النوع. وحق ما رأت فإن اظهار هذا النوع على هذا المثال هو أوضح ضياء يرى به المدلج أن الله سبحانه أحب أن يُعرف فافتضت ارادته ظهور هذا النوع مستعداً للمعرفة وعظيم الشوق إليها. والانسان في ظهوره جسماً وروحاً وتفاوت أفراده بالارواح تفاوتاً عظيماً قد أصبح دون ريب من أكبر الآيات في هذا الباب على ذلك الشأن العظيم من المراد الالهي، وأضحى مجمع أسرار وكنز حقائق لا يماري فيها إلا من جعل النسيان بينهم وبين الملكوت الاعظم حجباً.

ومن المشاهد أن الباري عزوجل يخلق الاسباب المساعدة على ترقى هذا النوع ويأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التي لا نعلمها

من أضدادها . إننا قد شاهدنا ماجرى ويجري من الدفاع والجدال بين جواذب الانسان الى حنادس الجهل ، وجواذبه إلى مشارق العلم، فوجدنا الغلبة للثانية على الاولى، وحسبك انّ الانسان بعد أن كان كسائر الحيوان لا يفقه غير حاجته إلى عشب يصد به ألم جوعته، وماء يرد به ألم عطشته، أصبح يعرف الغوامض من أمور الكواكب، وبحسب من حركاتها ما هو أقلّ من لمح البصر حتى تسنى له بذلك أن يعرف متى يكون الخسوف والكسوف ، دع عنك معرفته بما فوق الثرى وما تحته، ودع عنك توصله إلى استخدام الروح الساري في هذه الظواهر الدنيا نعني به الكهرباء ودع عنك استفادته من الارواح العليا . واتيانه بواسطتها بالانباء البعيدة والمحجوبة .

(2) ورأت السيدة «خديجة» أنّ البارئ عزّوجلّ مطلع على أعمالنا و مجاز عليها وأنّه يحب متّأ أعمالاً ويكره أخرى ... ومن تذكر ما حررناه في مقدمة هذا الفصل يعرف أنّ مثل هذا التعبير يقصد به تصوير معان من كمال الله تعالى فهو سبحانه محيط بالوجودات كلها وقد جعل لها سنناً من جملتها أن جعل أفراد النوع الانساني محتاجين إلى ارشاد بعضهم لبعض ومعاونه بعضهم لبعض ولا تنس أنّ الله سبحانه قضى بالتضاد ليميز به الانسان فما قرب من سننه محبوب عنده، وما بعد عنها مكروه لديه . هيهات هيهات أن نعرف ما معنى محبته سبحانه وكراهيته لأنّه سبحانه لا ضدّ له ، ولكن هذا العجز لا يثنينا عن الاعتقاد بأنّه يحب ما ينفعنا ويكره ما يضرنا كما هو مقتضى حكمته ورحمته بحسب ايماننا وإتّما خلق الضارّ والمكروه مع النافع والمحجوب ليتم ناموس التضاد الذي قضت به حكمته

ومن أمعن النظر بكل ما سلف هنا يتبين له أنّ في مقدمة المحبوب لديه مساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة القوي للضعيف. ومن يرزق هذا الروح لا- يكون إلاّ سليم الفطرة، طيب القلب، غير متهيج لنقص حظ، ولا متعال بزياده نصيب، فلا يكون إلاّ محبوباً تأتيه المساعدة من قبل عالم الغيب وعالم الحس والشهادة.

(3) على هذا ترى هذه السيدة أنّ الله سبحانه لا يكافئ فاعل الخير بغير الخير في هذه الحياة، وأهل الملل يقولون هذا القول باعتبار ما يلقي المرء في الحياة الثانية التي إنّما تكون لنيل الجزاء، وأما في هذه الحياة فمنهم من يذهب هذا المذهب الذي ذكرناه ومنهم من يقول إنّ فاعل الخير يتلي في هذه الحياة بالشروع.

ونحن لا ينبغي أن ننسى أنّ مذهب هذه السيدة مشوق لفعل الخير لأنّ المجازاة عليه في هذه الحياة والحياة الاخرى مما يزيد محبيه حباً فيه. واليه أذهب، وبه أثق، ولا عبرة بمن يشذ عن قاعدة هذا المذهب ممن ظاهرهم الخير والله أعلم بسرّاتهم.

هذا بعض تفصيل لما جاء مجملأً في حكمة السيدة «خديجة» ولم نسوخ الزيادة على هذا المقدار خشية تعب الرفيق القارئ ومنه يعلم رفيقنا أنّ هذه الاستدلالات العقلية كافية لمن كان له قلب سليم كقلب سيدتنا أن يعرف معرفة تدفع الريب أنّ الروح الذي وافى معدن الخير محمداً (صلى الله عليه وسلم) إن هو إلاّ روح خير وسلام، وفلاح ونعمة واکرام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

الفصل الحادي والعشرون - (الدليل النقلي)

اقتداء الناس بعضهم ببعض أمر قد ألفته طباعهم عظيم الالفة. وربما كان من سنخ غرائزهم، ومن مادة تصورهم، إذ رأيناه عريقاً في مرافقة الاجيال، والتنقل في الانسال، وموغلاً في الرسوخ والاستقرار، والدوام والاستمرار، لا يزرحهم شيء عنه، ولا يفصل بينهم وبينه فاصل .

هذا الاقتداء نفع البشر كثيراً، واضرّ بهم كثيراً، فاما نفعه اياهم فلأنّ الاكبر سنّاً، والاكثر فهماً، والاشد قوة، والاغزر تجربة، يجعلون المقتدين بهم يبتدئون حيث انتهوا هم، ويمهدون لهم ما لا يستطيعون أن يمهدوا لأنفسهم، ولو بقي الطفل والغبي والضعيف والغر خالين من طبيعة الاقتداء لراحت اكثر التجارب والاختراعات والتفكرات والاعمال العظيمة سدى، ولولا الاقتداء لما تعددت الاعمال والصناعات، ولا كثرت البدائع، ولا ارتقي التمدن، ولانمي العمران، ولاسيما النظام . وأما اضراره فلأنّه ساق أحيانا إلى الاقتداء بالجاهلين والمفسدين، ووقف أحياناً بهم بأقوام مع ماسن لهم اسلافهم وقفة الصخور، وجعلهم يحرمون مما يأتي على أيدي الحكماء من الهدى متى خالف ما عرفوا من قبل، وإن اصبح ما عرفوه منكراً لدى أهل زمانهم أجمعين .

البحث عن نغمه وضراره، ووضع الموازين للدرجات فيه، لا قرابة

بينه وبين موضوعنا ، ولكن اتخاذ الناس بعض كلام الآخرين من جملة الأدلة هو الذي حملنا أن تقدم هذه الكلمات في وصف عراقة وبيان أن بعضه نافع كما وقع للسيدة « خديجة » .

كان للسيدة «خديجة» ابن عم قد شيع من الاعوام ، وارتوى من حديث الانام ، قد تعلم العبرانية وقرأ بها الاسفار ، وعرف بها الاديان ورضي بدين ابن مريم (عليه السلام) ديناً وهو « ورقة بن نوفل ».

هذا الشيخ الجليل كان جديراً أن يكون اماماً لخديجة تتخذ قوله حجة وهدية معتصماً لأنّ هناك وجوهاً كثيرة تدفع عن نفسها الريب بأنّ هذا الرجل أعلم منها بهذه الامور و أنّه لا يصدر عنه إلاّ النصيح لها. فهو بالدرجة الاولى ابن عمّها بل بحسب السن مع القرابة هو في مقام ايها ، فلو أنّ ورقة غشاش مخادع لما كان منه الغش والخداع لبنت عمه فكيف وهو مستمسك إذ ذاك بدين ذلك الانسان المملوء قدساً الذي كان اكبر همه حث الناس على التحابّ ونفع بعضهم لبعض ، ونهيه عن التشاحن وايداء بعضهم لبعض . وهو مع قرابته وسموّ التعاليم التي تزكت بها نفسه كان في نظر خديجة سامي الهمة جداً.

ذلك ما حملها على الاسراع إليه لتقص عليه الخبر وترجع في هذا الامر إلى علمه وأخذت معها بعلها ليقص هو نفسه على سمعه ما رأى.

كان ورقة بحسب ما قرأ وعرف مصدقاً بأن ليس هذا الهيكل البشري إلاّ مظهراً لشيء يحل فيه هذه المدة القصيرة بإذن الله وهو الروح، وأنّ للروح ظهورات غريبة في بعض الهياكل ، و أنّه توجد أرواح من شأنها الاجتنان عن الحس والعيان تتمكن من الانسان من حيث لا يشعر، صنّف منها يحب جذبه إلى سبل التكمّل ، و صنّف منها يحب بقاءه في

حضيض البهيمية ، يقال في العربية للاول ملائكة ولالثاني شياطين .

كان مصدقاً بكلّ هذا ومؤمناً أيضاً بأنّ بعض الارواح الذين هم الملائكة يختصم الفاطر المصور يزيد خصائص ويجعلهم نواميس أي وسطاء الوحي الأعلى للذين يريد سبحانه أن تكون ظهورات الروح فيهم سامية جداً.

كان قد قرأ الانبياء وعرف مجيء الارواح إليهم وعرف أنّه يقوم أنبياء كذبة وأنبياء صادقون وأنّ لهؤلاء وهؤلاء علامات. فنحن لما سمعنا ذهاب خديجة إلى هذا العالم المسيحي خطر ببالنا أنّه لا يكون سهلاً تصديقه بقدسية الروح الذي أتى محمداً (صلى الله عليه وسلم) لأن يوحنا الرسولي يقول في رسالته الاولى «أيها الاحياء لا تصدقوا كلّ روح بل امتحنوا الارواح هل هي من الله لأنّ أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم. بهذا تعرفون روح الله . كلّ روح يعترف بيسوع المسيح أنّه قد جاء في الجسد فهو من الله، وكلّ روح لا يعترف بيسوع المسيح أنّه قد جاء في الجسد فليس من الله ، ولكن الذي خطر ببالنا أنّ وقوعه صعب قد رأيناه أمراً واقعاً فإنّ ورقة بعد أن سأل بعل ابنة عمّه يضع مسائل قال له هذا هو ناموس موسى أي الروح الذي جاءه . والظاهر أنّه لم يقل هذا القول ولم يصدق هذا التصديق إلا بعد أن عمل الامتحان الذي أوصى به يوحنا الرسولي وظهرت له العلائم الدالة على أنّ هذا الروح من الله على حسب ما أعلم من الكتب .

نحن لاندعي العلم بتفسير هذه الكلمات التي ليوحنا ولا طريقة الامتحان التي أشار بها ولكن نظنّ أنّ ذلك العالم القريب من ذلك العهد بالنسبة إلى زماننا هذا كان لا يجهل هذا التفسير . وكذلك لا ندعي العلم بتفسير قول موسى لبني اسرائيل «إنّ نبياً مثلي سيقم لكم الرب الهكم من

ص: 140

اخوتكم» ولا تفسير الاصحاح الثاني والاربعين من «اشعيا» ولكن يظهر لنا أنّ ورقة قد فهم من قول موسى هذا ومن اشعيا أنه سيكون نبي من العرب يكون مقامه حوالي سلع ذلك الجبل المعروف في البلاد العربية. وهذا نص مافي أشعيا :

«1-هوذا عبدي الذي أعضده ، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للامم 2-لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته .3-قصة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة خامدة لا يطفىء إلى الامان يخرج الحق . 4-لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الارض وتنتظر الجزائر شريعته . 50 هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الارض وتائجها ، معطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحاً 6-أنا الرب قد دعوتك بالبرّ ، فأمسك بيدك ، فأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للامم .7- لتفتح عيون العمي، لتخرج من الحبس المأسورين، من بيت السجن الجالسين في الظلمة . 8-أنا الرب هذا اسمي ومجدي ، لا أعطيه لآخر، ولا تسيحي للمنحوتات .9- هوذا الاوليات قد أتت ، والحديثات أنا مخبر بها ، قبل أن تثبت أعلمكم بها . 10- غنوا للرب اغنية جديدة ، تسيحة من اقصى الارض، أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها . 11- لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيثار، لترنم سكان سلع من رؤوس الجبال ليهتفوا . 12- ليعطوا للرب مجداً ويخبروا بتسيحه في الجزائر» .

قد قلت وأعيد قولي إنني لا أدعي العلم بتفسير هذه الكتب ولكني لما رأيت ورقة قال لزوج بنت عمّه هذا هو ناموس موسى بحثت عن منشأ

قوله هذا فوجدت فيما ذكرت آنفاً من قول موسى واشعيا ما يشبه أن يكون مأخذاً فمن أراد أن يقول لي لا يفهم من قول موسى وأشعيا ما فهمت لا يجدني أسفاً على عدم إصابة ظني بخصوص ما حمل ورقة بن نوفل على قوله هذا فإنه يجوز أن يكون قد عرف ذلك بغير ما ظننته . ولست في هذا المقام بذى حجاج ومناظرة إن أنا ههنا إلا كاتب سيرة أجتهد باستقصاء فروع حوادثها وتفسيرها على قدر فهمي ومبلغ ما وصلت اليه من النقل .

وههنا مسألة جليلة لا نستطيع مفارقة هذا المقام من غير أن نوضحها ونسهل فهمها على القارئ وهي إنَّ الارواح قد تعلم بعض الاشياء قبل وقوعها إذا كشف الله تعالى لما عنها بواسطة النواميس أو واسطة غيرها .

هذا المعني كان بنو اسرائيل يقولون به كما كان كثير من الامم الاخرى تذهب إليه وقد جاءت كتبهم حاملة سلسلة من أخبار هؤلاء البشر الذين كان الروح الالهي ينزل عليهم فينبشهم بما سيكون . وتبتديء هذه السلسلة المهمة في كتبهم بحديث نوح الذي أنبأ بأنَّه سيكون طوفان ويموت كلُّ من على وجه الارض وهدى إلى صنع الفلك فصار الطوفان ونجا هو وأولاده ونساؤهم وتناسلوا بعد الطوفان ثم تفرقوا ثم اصطفى الله من هذه الانسال ابراهيم (1) وكان ينزل عليه روحاً من عنده و شاخ، ابراهيم وزوجته سارة من غير أن يصير لهما نسل ولكن حبلت منه أخيراً هاجر جارية زوجته ونزل عليها الروح وقال لها سيكثر نسلك فلا يعد من الكثرة فولدت له إسماعيل ثم أنبى أنَّ زوجته سارة ستحبل وتلد بعد هذه الشيخوخة

ص: 142

1- ابراهيم بن تارخ بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح (كذا في التكوين)

وطول هذا العقم فولدت له اسحاق وأنبيء إن نسل اسحاق سيكون كثيراً أيضاً. وغضبت سارة على هاجر فطردها وغلامها فنزل على هاجر الروح وقال لها لاتخافي لأن الله قد سمع صوت الغلام وسيجعله أمة عظيمة وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية برية فاران التي قال عنها موسى (عليه السلام) إن الله سبحانه تلاًلاً فيها .

وتأخذ كتب بني اسرائيل بعد ذلك بسرد أخبار من تناسل من اسحاق بن ابراهيم وأما أخبار من تناسل من أخيه اسماعيل (عليه السلام) فلا تذكرها فابن اسحاق يعقوب (عليهما السلام) وهو اسرائيل (عليه السلام) كان الروح ينزل عليه ، ويوسف بن يعقوب (عليهما السلام) كان الروح يجيء اليه .

ويوسف هو سبب مجي بيت يعقوب إلى مصر وهناك تناسلوا وكثروا حتى ولد فيهم موسى صاحب الشريعة الشهيرة. هذا أيضاً كان نبياً وينزل عليه الروح وهذا قال لقومه « إن نبياً مثلي سيقم لكم الرب الهكم من اخوتكم».

واسس موسى لبني اسرائيل ملكاً على الوحي الروحي وخلفه بعد موته تلميذه يوشع بن نون وبعد موت يوشع بدأ الفساد والضعف يحل بهم ثم انتشلهم داود وسليمان وتعاضم الملك في أيام سليمان ثم طرأت عليه بعده الطوارئ حتى زال . ولم يخل زمان من أزمنة ملوكهم وبعدها من نبى أو عدة أنبياء حتى نزل الروح أخيراً على مريم أم عيسى (عليه السلام) وبشرها بأنه يكون لها ولد من غير أن يمسه بشر ، وقد ولدت مريم عيسى على هذه الصورة التي بشرت بها وصار نبياً أيضاً ولكن قومه كذبوه ولم يصدقوه ولا قليل . وقد كذبوا من قبله أكثر الانبياء الذين كانوا ينذرونهم بزوال الملك إذا ظلوا على الفساد .

أنا لا أعرف لماذا يكذب بعض الناس بأشياء هم مصدقون بمثلها ، أو يصدقون بأشياء هم مكذبون بمثلها . هذا أمر وقع كثيراً ويقع دائماً أمام أعيننا واسماعنا فهل التصديق والتكذيب بحسب وزن الاشخاص وما هو الميزان في الاشخاص ؟ أم بحسب وزن العقل وما هو سبيل العقل في التصديق والتكذيب بمثل هذا ؟

أنا أرى أنّ من آمن بسعة قدرة الله ، وبعجائب صنع الله، ونفذت بصيرته لرؤية آثار روح الله ، وآمن بمجيء ناموس الله لعبده موسى (عليه السلام) لا ينبغي له أن ينكر قدرة الله في اخراج عيسى من مريم (عليهما السلام) بغير واسطة بعل ، ولا يجدر به أن يكذب نزول روح الله عليه كما نزل على أخيه موسى (عليه السلام). ومن آمن بعجائب موسى وعيسى ابني اسحاق وبنزول روح الله عليهما لا ينبغي له أن يستبعد نزول هذا الروح على أخ لهما من بني اسماعيل .

هذا أقوله للذين صدقوا بما هنالك من العجائب والغرائب الموسوية واليسوية وأما الذين لا يصدقون بهذي وتلك ولا يحكمون إلا للحس والعقل فهؤلاء أمضي بهم إلى التجارب والمشاهدات وأنا واثق أنا لا نعدم في خزائنها كثيراً مما يؤيد أنّ بعض البشر يخبرون عن بعض الحوادث قبل وقوعها .

فإن قال لي هؤلاء نعم قد يوجد أناس على هذا النحو ولكن ليس هذا سبب اخبار من روح كما تقولون قلت لهم إذا توافقنا في ثبوت الاصل فلا ضير علينا بعد ذلك بالاختلاف في الاسباب وأسماؤها .

وإن قالوا لي ما الفرق بين هؤلاء الذين قد نراهم في أزمنتنا هذه من هذا القبيل وبين من تحدثونا عنهم قلت لهم إنّ هذا الفرق ظاهر لأنّ الاختصاص كلّ من الله فهو يعطي انساناً معرفة بعض الوقائع الآتية

و يجعله شارعاً وقائداً أمم ومؤيداً بتأييد عظيم لا تحيط به العبارة ويعطي انساناً آخر مثلاً صغيراً من هذه المعرفة من غير أن يجعله شارعاً وقائداً أمم ومؤيداً بتأييد عظيم فالاول يقول أنا نبيّ أو أنا رسول ويظهر الله صدقه فيما يقول والثاني لا يستطيع أن يقول هذا وإن قاله لا يظهر قوله حقاً. فهل ينكر هذا الفرق الكبير ذو بصيرة لا يعدوها الا خلاص إلى الله والادب مع مجالي أمره ، ومظاهر سره!؟

اقد كان ورقة على ما ظهر لنا شديد الاخلاص متوغلاً في علم الروح ومعرفة النواميس الالهية وأخبارها ، وكان على نور فراسة من ربّه وسرعة استطلاع فلما سمع هذا النبأ الجديد تفرس بصاحبه وتذكر ما نقل عن الانبياء واصحاب النواميس من قبل ، وتذكر قول موسى لقومه بني اسحاق « سيقم الله نبيا مثلي من اخوتكم» وما اخوتهم إلا بنو اسماعيل فقال له هذا هو الناموس الذي نزل على موسى (عليه السلام).

ثم تذكر ايداء الناس للانبيا مع قول اشعيا «لترفع البرية صوتها، الديار التي سكنها قيثار» وقيدار هو ابن اسمعيل ، وقوله « لتترنم سكان سالع» وسالع او سلع جبل على مقربة من « يثرب » من أشهر جبال العربية فلاح له أن قريشاً ستضطر هذا النبي الى مفارقة بلده « مكة » فقال له « ليتني فيها جذعاً - اي شاباً - اذ يخرجك قومك » .

وبعد برهة قليلة توفي ورقة . أما « خديجة» فاستمسكت بكلام هذا الرجل أيما استمساك وأضافت علومه إلى ما قد عرفته هي بدلالة عقلها وتجربتها فأصبح ايمانها بنبوة بعلمها ورسالته إلى الناس اثبت من الرواسي

الفصل الثاني والعشرون - الإيمان والآيات وخوارق العادات)

قال بعض الناس في تلك الأيام لا عجب إذا آمنت «خديجة» ببعثها فإن رابطة الزوجية تستدعي مثل ذلك ولكن ذا القدرة العظيمة قد أتى هؤلاء القائلين بما يعارض مزاعمهم اذ طلق بعض من سمع هذا النبأ يؤمن به ولم يبق المصدق به « خديجة » وحدها فاضطروا أن يخترعوا أسباباً أخرى للإيمان به .

حرب فكرية قامت أمام هذا النبأ الجديد عند شيوعه ، ارتجت له مكة وما حولها، انقسمت الافكار، تباينت الانظار ، وفي مثل هذه المواقف يعرف الراجعون بحسن الفطرة ، وقوة الفطنة إذ يكونون من السابقين في رؤية الدقائق ، والوصول إلى الحقائق .

قال نفر منهم :

« لقد عرفنا محمداً طول هذه السنين فما عرفنا الكذب صاحباً له ، ولا عرفناه صاحباً للخداع، وقد قام اليوم يخبرنا بأمر وقع له ليس هو بدعاً من الامور ، ولا هو بضارنا شيئاً. أتانا يخبرنا بأمر يشبه ما نسمعه عن أمر موسى نبي بني إسرائيل ولم يكن أمر موسى إلا نافعاً لقومه فلعل الله سبحانه يريد أن يهدي إلينا نفعاً بواسطة هذا الرجل الصادق الأمين منا.»

قالوا :

«يقول صاحبنا إن روحاً أتاه وأوحى إليه ما أوحى ، ولا شيء من

ص: 146

هذا ببعيد عن العقل إذا تأدب العقل ووقف أمام بحر القدرة الازلية الابدية وقفة العارف أنّ هذا بحر لا حد له . ويقول إنه أمر بتبليغ الناس هذا الوجي وما سيتلوه».

قالوا :

« إنّ هذه الدعوى عظيمة فإن كان ما ادعاه حقاً كان من العار العظيم والضرر الكبير أن نرد هدية ربنا عزّوجلّ الذي أهدى إلينا العقل من قبل وهو يعزز اليوم تلك الهدية بهدية أخرى ربما كانت من نوعها وربما كانت من نوع أعلى وهل يرد حامل العقل مثل هذه الهدية بعد أن يذيقه العقل طعم الرشده والمعرفة ويأتيه بروائح ما يهب الفاطر جلّ وعلا من صنوف المعارف . وإن كان ما ادعاه غير حق فإنّ حبله سيكون قصير لأنّ لدينا عقولاً ولا يضرنا حينئذ ظهور أمره ».

وقال نفر:

«لماذا يدعي الصادق الامين هذه الدعوى إن لم تكن صحيحة ، هل فقد عقله ؟ كلا فإنّ لا نزال نرى صحته واعتداله على أنهما ، هل تغيرت أخلاقه؟ كلا فإنّ من الاخلاق ما يرسخ مع كثرة الاعوام وقل ان يبيض الصادق ماثنا . كلابل الامر جد ، والدعوى صدق ، وإنّ لهذا الامر لناصر آمن قوة ساقته بعد أن عاش أربعين سنة - إلى الاتيان بهذا الامر الغريب الصعب عليه ، وإنّ الايمان بقدرة الله تعالى ليدعونا إلى اجابة هذا الداعي من لدنه ، وإنّ الاخلاص ليدفعنا إلى اعلاء الكلمة التي تنزلت إلينا فضلاً من ربنا ورحمة ، إنا به مؤمنون!«.

ص: 147

كان في مقدمة هذا نفر أبو بكر ذلك الرجل الذي لم يعرف إلى ذلك الوقت بعيد قومته وليت شعري لماذا تجول الظنون وتحوم في تلمس الاسباب لإيمان أمثال هؤلاء الافاضل مع اتفاق العقلاء على أنّ الذي رسمنا صورته من تفكراتهم هو المطابق لحكمة المعتدلين.

القائل إنّ «خديجة إنّما آمنت ببعليها لأنّه بعليها هو في سعة من ظنّه هذا اذا شاء . ولكن بما مهدنا له من المثل بايمان أبي بكر تتمنى أن يكون انتفع بمعرفة أنّ طريقة ايمان « خديجة » كانت أعلى مما يظنّ .

إنّ الذي آمن به أبو بكر ثمّ ثمة ثمّ أوف غيره لا يجوز للعاقل المنصف أن يحرم زوجته العاقلة من شرف الطريقة التي آمن بها هؤلاء الافراد ثمّ الجماعات

إنّ ظنون الناس تكون على حسب أخلاقهم وطباعهم وتصوراتهم فالذين يصرون على ادعاء أنّ السيدة «خديجة» لم تؤمن بهذا الروح الجديد إلاّ لأنّ صاحبه هو بعليها هم إما جامدون في معرفة الاخلاق البشرية على شيء يستعيد العاقل بالله من تفاهته وهو القسم الرديء منها، وإما هم مجبولون على العناد، وامام مستعظمون لتصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات .

نحن لا نسوغ لأنفسنا أن نعيب أحداً ممن كان حظهم قليلاً من علم اخلاق الناس ولا ندعي أنّا نستطيع بالكلمات القليلة التي نقولها الآن بمساعدة واذن من الصدد أن نودع في أفكارهم علماً جديداً واسعاً ولكنّا نستطيع أن نذكرهم بأنّ أخلاق الافراد ليست على شاكلة واحدة بل منها ما هو في أسفل السفلى ومنها ما هو في أعلى العلى ، ومن الناس من يغلب عليهم من الصدق والاخلاص ما يملك قلوبهم ويجعلها بعيدة عن التصنع

والرياء ، وعن الارتياح بالامور التي ليست غريبة عن محيط القدرة والحكمة والعناية الازليات إذا حدث بها المعروفون عندهم بالصدق والامانة ، ويجعلها قريبة من كل ما فيه تمجيد اسم الفاطر جلّ وعلا وتعظيم مظاهر أمره وسره . وبعد هذه التذكرة نستطيع أن نقول لهم إنّ سيدتنا هذه كانت من أهل هذا الخلق الجليل كما تشهد سيرتها . ومتى تزحزح هؤلاء عن مركزهم في علم الاخلاق سهل عليهم أن يشتركوا معنا في معرفة أنّه ليس محكوماً على «خديجة» بالحرمان من الايمان الصحيح المبني على أسباب صحيحة لا على كونه بعلمها .

وأما المجبولون على العناد ، والغرور والاعجاب ، فلا تتعبهم بسماع أقوالنا اذ ربما أنت ثقيلة عليهم ، ولا تتعب انفسنا بمخاطبتهم إذ قد تأتي علينا ثقيلة . فلهم دينهم فيما توقعهم فيه جبلّهم ولي ديني فيما يمشي معه قلبي .

وبقيت لي كلمة مع الذي يستعظم تصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات كثيرة . إنّ هذا معذور في نظري والتفاهم بيني وبينه سهل لأني لا أطلب ان يترك ما بيده من النظريات بل أمشي معه في الحديث وهي في يده فنبلغ معه غاية حسنة تصلح أن تكون ملتقى لنا معما تشعبت حولها آراء اخرى لكل واحد منّا .

أنا أقول معك يا صاحبي إنّ الذي يطالبه غيره بالتصديق له أن يطالب هو بالأدلة والآيات ، ولكن إذا سمعت بصدق ولم تسع قصة طلبه للدليل والآية فلا تحكم بأنّه آمن من غير دليل وآية إلا إذا كنت تعرفه من قريب وتعرف أنّ بضاعته كلها تقليد الآباء والمعلمين .

أنت تعرف أنّ أبا بكر وامثاله ممن صدقوا محمداً (صلى الله عليه وسلم)

لم يكن لهم آباء سبقوهم في تصديقه، ولا معلمون حملوهم على تأييده و تعرف أنّهم كان لهم حلوم راقية رائقة ، وألباب زكية فائقة ، فهل تظنّ أنّهم صدقوه بنير آيات بينات ، وأدلة ساطمات ؟

المشارب في الاستدلال مختلفة وأخشى أن يكون مشربك فيه كمشرب الذين لا يعدون الآية إلا الامر الخارق للعادة ولذا رأيت أن لا أودع هذا المقام من غير أن أحادثك بالآيات والخوارق بعد أن اسلفت طريقة « خديجة » على النحويين لتعلم كيف يمكن أن يكون إيمان كل مؤمن بحمد (عليه الصلاة والسلام) .

إذا وقع شيء خارق للعادة لا يستطيع احد حينئذ أن ينكر أن آية عظمى ولكن ماهي العادة وهل يمكن أن تخرق (أي تخالف) وهل وقع شيء من هذا ؟

يعنون بالعادة عادة الاشياء وطبيعتها ويعبر بعضهم منها بسنة الله تعالى في الكوائن والذين بحثوا في امكان خرق العادة لم يفرقوا بين شيء وشيء بل جعلوا الكلام في هذا الموضوع على اطلاقه ومن هنا اشتد خلافهم. والذاهبون إلى وقوع الخوارق لم يذكروا في الامثلة التي أوردوها من صور هذه الخوارق إلا شيئاً يسيراً جداً لا يصلح أن يلتفت اليه خصومهم فضلاً عن أن تكون به قناعتهم .

إنّ الله عز وجل سننا في كل موجود ، أو نقول إنّ لكل موجود مادة وطبيعة، والشمس مثلاً من جملة الموجودات فهل يقول الذين يعتصمون بالخوارق يمكن أن تصير هذه الشمس برغوثة وتبقى هذه الارض على حالها ويقال الناس فيها ناساً يبصر بعضهم بعضاً بغير نور ويحيون هذه الحياة عينها متمتعين بحدائق وفواكه، ولحوم وشحوم، ومياه جارية، وأزهار

زاهية ، وصيف وشتاء وربيع وخريف ... إلى آخره ... إلى آخره ؟

أنا لا أعرف ماذا يقولون ولكنني مع ايماني كإيمانهم أو أكثر بعظيم قدرة الله تعالى يجدونني إذا قالوا في هذه المسألة « نعم » مفارقاً لهم وقائلاً إذا تغيرت سنة الله سبحانه في الشمس فصارت هي برغوثةً تتغير سنته في أيضاً فأصير أنا غير انسان وغير باحث عن الخوارق .

الذكي يفهم من هذا المثال أن بحث الخوارق المدون في كتب جميع الملل لا يقف أمام نفخة من روح الله الحكيم إذا أراد عزوجل إعلان الغيرة على حكمته وسننه ، ويفهم أيضاً أن الدين الذي هو من أكبر هدايا العناية الازلية لا يتوقف عليها إذ لو توقف عليها وكان لا بد في ظهور صدق المأمور بتبليغه من ظهور خارقة لما تسر تصديق أحد لأن كل واحد حينئذ يخترع فيقترح صورة من الخوارق لسنن الله، وناظم الكون سبحانه لم يشأ إلى الآن نشره على ما يهواه المقترحون .

الاقتراحات لا حد لها ولا عد ولا نظام، هذا يقترح مثلاً أن تصير الشمس برغوثة ، وآخر يقترح أن يصير المشتري عصفوراً ، وآخر يقترح أن يكون المريخ (طرطوراً) وآخر يقترح أن يصير القمر قمرياً ، وآخر يقترح أن يكون عطارد عطاراً ، وآخر يقترح أن تكون الزهرة زهرة لا تذبل أبداً ، وآخر يقترح أن ينضب البحر كله وتظل الانهار جارية ، وآخر يقترح أن يصير البحر كله برأ أو البر كله بحر أو الناس كلهم سمكات مؤمنات مصليات صائمات ، وآخر يقترح أن يكون التراب كله ذهباً ، و تنبت عليه اشجار التفاح والليمون والاعناب والزيتون ، وآخر يقترح أن يصير الوقت كله ليلاً وتحبس الشمس في حجرة من حجرات الملوك ،

ص: 151

واخر يقترح أن يصير الوقت كله نهاراً ويذهب النوم إلى الشجرات الدائمة اليقظة ... الى آخره ... الى آخره ...

نعم إن مبدع - منظومات الكون لم يشأ إلى الآن نشرها ولا- نستطيع أن نقول إنه ينثرها على حسب الاقتراحات لتأييد الرسل فما معنى مباحثاتنا معشر البشر بأنه هل يستطيع ذلك أم لا يستطيع بعد ايماننا بعدم تحدد قدرته و بعد سماعنا وحيه يرشدنا بهذا الكلام العالي « فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ».

بعد تقرير هذا اقول إن البشر لا يستطيعون أن يعرفوا كل سنن الله تعالى او كل عادات الاشياء وطبائعها بل لا يستطيعون أن يعرفوا جميع اسرار كائن من الكائنات وجميع طبائعه بالتمام ، ثم هم لا يعرفون ايضاً مقدار عنايه عز وجل بالانسان وانه مازال يمدّه بصنوف الهدايات ، وأنه قد يشاء اعلان آية له لاظهار عنايته به فيريه شيئاً مثلاً على خلاف ما تعلمه من عادات بعض الاشياء التي لا يترتب على تخلف المعروف من عاداتها نثر المنظومات ومن امثلة ذلك أن النار شأنها الاحراق وقد تقتضي سنته تعالى لا علاء معارف الانسان وهدايته أن يريه النار غير محرقة لسبب تتعلق القدرة ياخفائه.

إن مثل هذا يقع ونعده من جملة سنن الله تعالى لأن من جملة سننه ابداع هذا الانسان واطلاعه على واسع القدرة ، وبيدع الصنعة، واحتجاب الحكمة ، واختصاص العناية .

ومن هذا التفصيل يتبين للقارئ أنّ مؤيدون للآيات لا منكرون لها. وقصارى ما نقول إن الدين لا يتوقف على الخوارق بقدر ما يقترح المفترحون ، ويظن الظانون، ويخترع المخترعون ، وإنّما يؤيده الله تعالى بآيات تنشرح لها البصائر المستعدة ، ولا نقول إن هذه الآيات فيها

تحويل لسنة الله تعالى او عادة الاشياء وطبائها إذ لا تبديل لسنة سبحانه وإتما فيها معونة ربانية نعرفها بأثارها .

وربما كرهنا التعبير بالخوارق الذي اصطلح عليه المدونون وان كانت المناقشة على الالفاظ بغیضة إلینا وبعیدة عن رأینا . ونحب التعبير بالآیات (كما عبر القرآن الحكیم) ویا لله ما اكثر الآیات علی أن ما أتى به هذا المختار هو فضل رباني وأمر روحاني .

اقد أنبتة الله نباتاً حسنا ، وشمله بالعناية منذ كان في الصبا ثم الشباب وهو غير شائن ذلك الاله اب حتى دخل الكهولة وتاق إلى التكميل وفي هذه السن بدأه بتحبيب العزلة وتفريغ الفكر من الصور الفواني ليشرق فيه الجلال الذي لا يفنى ثم أعلن لروحه روحاً من لدنه كما منح هذا من قبله رجالاً كثيرين من المصطفين كإبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف و موسى وعيسى (عليهم السلام) ومن الآيات انّ هذا الوحي صالح مصلح لنا ولم نجد له طلب منّا أن نعبده من دون الله وإتما قال لنا أنا عبد الله جئتكم بآلاغ من عنده أنّه وحده له الحكم ، و أنّه وحده إليه المرجع والمآب ، ولو قال لنا أنا الهكم لوجدنا مقترحين عليه أن يجعلنا خالدين ، اذن لوجدناه عاجزاً .

الحمد لله لقد جاءنا هذا الرسول بآيات كثيرة لا نستطيع عدّها : جاءنا بالعلوم وهو امي ، وجمع كلمة الشعوب وهو وحيد ، ورفع الله له من الذكر ما لم يرفع لمثله وجعل هديه باقياً ، وصوته عالياً ، وروح تأييده سارياً ، ولذا ليس اليوم بنا من تعجب حين نسمع ايمان أقرب الناس منه واعرفهم به بل نحن بخديجة وابي بكر مقتدون ، ولو بنا على هذه المنايات والآيات شاكرون ، وبوحي الله لهذا المصطفى مؤمنون

الفصل الثالث والعشرون - (اعلان الدعوة، واحتمال الاذى، والثبات)

لم تقف فضائل السيدة « خديجة » عند ما ذكرناه إلى الآن من سيرتها بل هي كالينابيع الثرور لا تغيض. والآن يشرف القارئ معنا على مجلي من اعظم المجالي لفضائل هذه السيدة الجليلة . جاء الآن دور الثبات في سبيل الحق ، وهذا الثبات لا نجده في كل عصر إلا في صحائف أفراد ندرتهم بين بني آدم أعظم من ندرة الياقوت بين الحجارة ، وكثرة فوائدهم أعظم من قطرات الغيث.

لقد مرّ على بني آدم ألوف من الاعوام وفي كل عصر وجد منهم ألوف الالوف ومن كل هذا العدد العظيم لا نعرف مئة ثبتن في سبيل الحق مع شدة المعارضة ثبات « خديجة »، أما ثبات بعلها الكريم فلا ينبغي أن نقيس به بعد ما قدمناه ثبات أحد فإننا قد وصلنا في الفصول السابقة إلى بيان أنه مؤيد أعظم تأييد ، وأنه سمع الوحي الإلهي أمراً إياه أن يقوم بأعباء الرسالة والتبليغ ، فأصبح الفرق بينه وبين غيره عظيماً جداً منذ أتاه هذا الوحي. وعندنا معشر المؤمنين به أنه هو المختار الأعظم ، والمصطفى الأكبر ، فلذلك لا نرى ثباته في سبيل الحق يعادله أو يقاس به ثبات .

ظلّ هذا المختار ثلاث سنين يدعو سرّاً ثم أمر أن يجهر بالامر فلم

يجد إلى جانبه زوجة تثبط وتخوف أو يضعف قلبها فتؤثر الراحة وطمأنينة البيت على النصب واحتمال الاذى بل وجد قرينة صالحة القلب للوقوف معه بالصبر والسكينة أمام المعارضين والمعارضات وما أشد ما كان أمام هذا الداعي إلى غير ما عرف القوم وما أحوج هذه الحالة إلى قلوب كلما كبر المعاندون كيداً تقول «الله اكبر»!؟

الله اكبر ، كان المعاندون افراداً وجماعات قد امتلكت الانفة والعزة تفوسهم، واجتذبت قلوبهم، وامتصت من أفئدتهم الندوة فأصبحت نسمة الهدى تزعجها ، وحرارة الانذار تكاد تحرقها،

قريش وما قريش؟! قبيلة ترى لنفسها سبق بكل فضيلة والشرف على كل فصيلة ، لها انوف شامخة كأنها تطاول السماء ، وأعناق متامة كأنها تتصيد كل علياء ، تعاد كل قوم بالنجباء فتكثُرهم ، وتفاخر من تشاء بالعظماء فتخُرهم ، مثلها بين القبائل كالشمس مكانة ، وكالروضة نضرة وعبيراً.

هذه القبيلة التي حالها ما وصفنا من قوة الشكيمة وشدة الالباء ومزيد التعالي كانت قد أصيبت من الاقتداء بمضرته إذ كانت بعض العقائد التي صادفتها في موردها ومصدرها في البلاد المجاورة قد التصقت بمقولها حتى أصبحت ترى التصدي لاقتلاعها منها اعتداء على حقوقها، وانتهاكا لحرمااتها .

هذه القبيلة كان لها من نور الذكاء ما يبهر الناظرين ولكن قد تراكمت على افكارها سحائب من آثار التقليد حالت بين ذكائها وبين الحقائق العالية حتي رأيناها تدرج مع البلداء في مدرج واحد من تأليه صور صماء عمياء بكماء جامدة قد صنعتها الأيدي فقامت تحسب أنّ هذه الصور تخسر وتنفع، وتجلب وتدفع، وتقرب إلى الخالق الأعظم وتشفع،

وراحت تعلن أنّ لهذه الصور مجداً، وتستحق شكراً وحمداً، وظلت تصنع لها ما تصنع الامم لآلهتنا من ذبح القرابين، ونذر النذور، وتوجه القلوب، وإخبات الصدور، وتعلق القلوب .

نعم ساورت تلك العقائد قلوبها حتى صارت الانفس فيها لا تنبسط لشيء انبساطها لتمجيد تلك الآلهة ولا تنقيض لشيء انقباضها للطعن فيها أو النقص من تكريمها .

هذه حال القوم الذين أمر هذا الرسول أن يقوم فيهم منذراً وداعياً إلى معرفة الله تعالى وتوحيده، وكانت قريش تعرف هذا الاسم الجليل الدال في هذه اللغة على واجب الوجود موجد السموات والارض ولكن لم تكن تعرف ما ينبغي أن يكون عليه جلال الذي يعبر عنه بهذه الكلمة من الكمال والبعد عن مشابهة الحوادث، وقد جرّها الجهل بالله تعالى وسفنه وآياته إلى ماجر كثيراً من الامم إليه من جهل كثير من الحقائق. وإني ما أشبه نتائج الجهل به عزّوجلّ إلا بسلسلة طويلة يستدرج بها ذلك الجاهل الى أسوأ النهايات إذا لم تتداركه الاسباب من عناية الرؤوف الرحيم جلت آلاؤه، وتعالّت أسماؤه

ولقد كاد حظ قريش من هذه السلسلة - سلسلة الجهل - يصل بها إلى مستقر لا تغنيها فيه الرفعة على أمثالها من ضرب الجهل خيامه عند خيامهم، ولا تجديها القوة اليسيرة التي كانت تجدها في اجتماعها ذلك . كاد الاتكال على الاصنام يعني كلّ اثار القطرة منها، ويطمس كل رسوم الذكاء، ويذهب بماركه فيها من المحاسنين بعض فضلاء الاسلاف قبل عهده بهذه الآلهة التي فتنوا بها . أصبحت لانعي ما هو فضل الله، وماهي

رحمة الله ، وما هي عناية الله ، وغدت بعيدة عن معرفة ماهو الروح وما هي خصائص الروح، وما هي عبادة الروح للاحد المحيط بكل شيء ، وراحت معرضة عن العلم بمراقى الامم واتساع دائرتها، وعن معرفة وظيفتها من تميم ارادة الفاطر بإظهار البدائع على يدها، وظهور آلائه وآثار عنايته عليها ، وأصبح قصارى مايجول بفكر الواحد من هؤلاء القوم أحد شيتين يشيلان في ميزان العقلاء : شيء يرضي به وهمه في التزلف إلى تلك الحجارة التي اتخذها آلهة ، وشيء يرضي به وهمه في الكبرياء ، ولم يدر مغرورهم أن التزلف إلى تلك الحجارة وأمثالها هو منتهى التسفل العقلي ، وأن تلك الكبرياء ، لا تجديهم شيئاً إذا دهمهم داهم خارجي كما وقع لهم يوم «أبرهة».

هذه السلسلة الطويلة من نتائج الجهل بالله تعالى وسننه وآياته أصبحت قيلاً لمداركهم قد أحكمت حلقاته فهم لا يستطيعون ما دام موجوداً أن يبرحوا ما هم فيه أنن جاذبا منه يجذبهم من حيث لا يرونه كلما تحركوا .

هذه هي السلسلة التي اقتضت عناية البارئ أن تظهر آية عظيمة في قدها وتخليص تلك الفطر من قيدها ، واقتضت الحكمة البالغة والتدبير الاسمي أن يكون ذلك بواسطة من انفسهم ، وأن تجري الهداية على سفنها في الاولين فيلاقي الوسطة ما يلاقي ، ويعبر ما يصبر ، ويتم الله ما يريد. ولذلك لما قام هذا المصطفى يعلن هذه الدعوة : أتى تلك الصوامد وما تلك الصوامد جهل وغرور، وكبرياء وعتو، وقسوة وفضاظة، وتعصب للمألوف، ونقرة من الوعظ والنصح، وابعاء أمام الانذار، وطغيان وبهتان وعدوان، واقدام على قتل الذي يذكر آلهتهم بما يكرهون .

أي قلب لولا التأييد الرباني يجد إلى الصبر سبيلاً أمام هذه الصوامد،

وأى ناصية لولا العون الرحماني تظهر للقاء هذه الصوادم ، وأي امرأة غير «خديجة» ، ترى بعلها في جوف هذه الغوائل ثم لا تزيده إلا حمداً على القيام بوظيفته وائناسا بوقوفها معه في وجه كل خصم لدود .

أوذى (عليه صلوات الله وتسليماته) بأنواع الأذى لما أسمعهم الدعوة، تكاثر المفتاتون عليه والمفترون ، وظاهر سوادهم الجاحدون والممترن، من اقرب اقربائه ظهر الجافون المتباعدون عنه، و الهازئون به والساخرون منه ، دع عنك البعداء ، ومن اكل قلبهم حسد أو بغضاء ، قال المفترون هو يطلب الملك علينا ، وقالوا عن الوحي الالهى هو شعر جاء به الينا، وقد حشروا ما عرفوه من العيوب وأرادوا عزوها اليه لينفروا الناس منه وينتقموا لآلهتهم التي بداهم بجحودها، وكشف لهم عوار جمودها، وأيسر ما فعلوه سبهم اياه والهزاء به والافتراء عليه ومجافاته ثم مجافاة من لم يجافه.

فعلوا كل هذا وهو متدرع بالصبر، مثابر على الصدع بالامر ، وفي هذا كانت معه هذه الزوجة الشريفة الفاضلة تعلم محبي الحق كيف يكون الصبر من أجله ، وتهدى إلى الاجيال الآتية اجمل صورة لثبات الجأش أمام الصعوبات .

ويا ما أحلى الصبر إذا كانت عاقبته كعاقبة صبر هذا الرسول الكريم فقد كانت العقبي ذلك الفوز العظيم الذي يقل في الدنيا من لم يسمع خبره ولنعم عقبي الصابرين

-خلاصة الدعوة -

أما الدعوة الشريفة التي أعلنها فهذه أصولها :

(1) العلم بأن لاشيء يستحق التأليه إلا الله الخلاق العظيم الذي

لا يشبه الحوادث ولا يشبهه شيء منها .

(2) بأنّ هذا البارئ المصور فو عناية خاصة بالنوع الانساني ومن عنايته به اتحافه بصنوف الهدايا ومنها الهداية بواسطة وحي أعلى للرسول المصطفين .

(3) العلم بأنّ هذا الداعي الجديد إلى الله هو رسول مصطفى قد أرسله الله بدين يدعو إلى السعادة في هذه الحياة وحياة أخرى يوم الجزاء .

(4) العلم بأنّ الايمان بهذا الرسول يقتضي الازعان والتسليم إلى كل ما جاء به .

هذه أصول الدعوة التي كان مأمورا أن يبدأ بها الناس وهي ملخصة بهاتين الجملتين الشريفتين «لا إله الا الله محمد رسول الله» فمن قالها مطمئناً بهما قلبه دخل تحت اللواء المحمود لواء المحمدية الذي بظل مئات الملايين في يومنا هذا .

والرسالة المحمدية لم تكن لقريش ولا للعرب خاصة بل هي الناس كافة ولكن البدء بالعشيرة الاقربين كان هو الذي تقتضيه الحكمة حتى إذا أجابوا كانوا عوناً للدعوة لا هوناً عليها .

الفصل الرابع والعشرون - (بعد عشر سنين)

بعد عشر سنين من عهد الرسالة كان المؤمنون قد كثروا واخذ العناد من الخصوم يزيد، وجعل الحسد يلتهب في قلوبهم لهذا النجاح الذي كانوا يحسبونه محالاً وكم يحسب أمثالهم مثل هذا الحسبان

ص: 159

كان الجاحدون في نار من ذلك الحسد، والمؤمنون في جنة من الفرح بنعمة الله ورحمته، كان الجاحدون يفكرون كيف يزهقون هذا الروح الجديد، والمؤمنون ينتظرون من مولاهم اعلاء شأنه، كان الجاحدون حيارى في هذا الداعي فطورا يسبونهم وطورا يهزأون به، وأحياناً يرجعون إلى أنفسهم ويحاسبون حسهم وعقلهم فيه فيجدونه بعيداً عن المين وسائر المظان التي كانوا يظنون، وكان المؤمنون من يقينهم في حظ عظيم من الطمأنينة وانسراح الصدر وفرح الضمير. كان الجاحدون يرجعون إلى تلك الحجارة فيشكون إليها المحمدين وما أتوه من مخالفة قومهم وتأيد ذلك الرجل الذي لا يذكر آلهتهم إلا بسوء، وكان المؤمنون يرجعون إلى من لا تدركه الابصار متوجهة إليه وجوههم، مسلمة إليه قلوبهم لا يتوكلون إلا عليه ولا يأخذون إلا بسنته. كان الجاحدون عكوفاً حول تلك الاصنام الجامدة، وكان المؤمنون يقولون سبحان الله سبحان الله عما يصفون، تعالى الله علواً كبيراً. كان الجاحدون كثيري الغم والهم، وكان المؤمنون مع شدة ما لاقوه من الأذى فرحين مستبشرين قد أبدل الله لهم مرارة الصبر حلاوة، وذلة القلة عزة،

وفي أواخر تلك السنين العشر الشداد كان على سرير الاحتضار شخص عزيز جداً عند المؤمنين ولم يشمت الجاحدين في تلك الايام شي ممثلاً مغادرة هذا الشخص لذلك العالم الاسلامي الذي نشأ وترعرع بينهم بالرغم منهم.

كان في هذا الشخص العزيز روح ترفرف في هذا المحيط الصغير، تارة ترفع البصر إلى مقرها الاقدس عند المحيط الانتظام فتحاول الطيران إليه، وتارة تلقي به على هذا المحيط الذي أنست به فتظل مرفرفة عليه، وجانحة

الى العكوف لديه ، وكان جاذب من قلوب هذا العالم الاسلامي يتمنى بقاءه ، وجاذب من امر الله وسنته يقضي بطيرانه ، وأمر الله أعلى واليه المصير .

هل عرف القارئ من هذا المودع العزيز ؟ ذلك كان شبح سيدتنا «خديجة» فقف أيها القلم خاشعاً ، لقد ماتت من تركت للفضائل حياة لا تفنى ، لقد انتهى هذا العمر الذي أمدك بهذه المواد السامة ، ولن تجد لك أيها القلم شرفاً بعد هذه السيرة إلا اذا سرت بنقل التاريخ المحمدي

سبحان رب الكون هذا حكمه*** في الروح قد سيمت بهذا الواقع

مرآتها هذا الشخوص بها ترى *** زمنا وترجع للمحيط الواسع

لقد مرت روح سيدتنا « خديجة » بهذه الدار فرأينا منها ما نقلناه للقارئ والآن هي لدى المحيط الواسع فهل تتجلى اليوم على هذا العالم الذي مرت به وترى أنّ تلك الكلمة التي قاست في سبيلها مع بعلمها الكريم ما قاست قد أعلاها الله تعالى وعظم شأنها ونصرها العرب وغير العرب وأصبحت برور الارض وبحورها مملوءة كل هذه المصور إلى يومنا هذا بمن يقول من جميع اجناس البشر « لا اله إلا الله محمد رسول الله » .

وقد ولدت سيدتنا « خديجة » من زوجها الكريم بنين وبنات وبقيت لها من بنتها السيدة «فاطمة الزهراء (عليها السلام)» ذرية مباركة في أكثر أقاليم الارض والحمد لله ولكن هل تتجلى اليوم تلك الروح الشريفة وترى أنّ كل المؤمنين يعدون اليوم أولادها؟ فالسلام عليك يا أم المؤمنين ، سلام الله ورحمته وتحياته على روحك الطاهرة يا أمه

ص: 161

(فهرس سيرة السيدة خديجة)

صفحة

- 4- (مقدمة تمهيدية او اهداء السيرة)
- 9- (المقدمة)
- 10- العرب - أصولهم وانسابهم
- 12- العرب البائدة
- 13- العرب ولد اسماعيل
- 14- العرب - اختلاطهم بالأمم
- 15- العرب - تاريخهم وعلم النسب عندهم
- 17- العرب - حضارتهم قبل الاسلام الغسانيون
- 19- ملوك كندة
- 20- ملوك كندة وخبرامرئ القيس
- 21- عدنان وقحطان اصلا العرب
- 22- عدنان سلالته ونسب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)
- 25- (الفصل الاول - مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة)
- 27- مكة وحكومة قريش فيها
- 29- مكة حال قريش الحرية وقصة أبرهة
- 31- (الفصل الثاني - بيوتات قريش وخصائصها)
- 33- الندوة والاشناق والفيء والاعنة
- 34- السفارة والايثار والأموال المحجرة
- 35- حلف الفضول وقص نظام قريش

36- (الفصل الثالث ديانة أهل مكة عند البعثة)

39- حرية أهل مكة

40- البيع والرق وحقوق النساء في مكة

41- (الفصل الرابع - مقام النساء في قوم خديجة)

42- وأد البنات - اسبابه

45- مشاركة نساء العرب للرجال في الامور العامة

46- النساء اللاتي شايعن علياً (رضى الله عنه)

47- خبر سودة الهمدانية مع معاوية

48- خبر بكاره الهلالية والزرقاء الهمدانية مع معاوية

49- دامية الحجونية

50- (الفصل الخامس - مقام خديجة عند قومها)

51 النساء - ارتفاع شأنهنّ عند العرب

52- المألوف وغير المألوف

53- الفصل السادس - (فضائل خديجة والفضائل عند قومها)

54- المعروف والمنكر ميزانا الارتقاء عند العرب

55- تربية ملكتي الكرم والشجاعة عند العرب

56- شجاعة العرب و يوم ذي قار

57- أشعار في يوم ذي قار

58- علوم العرب وحكمتهم

59- علوم العرب بالطب والادب

60- حكم العرب ومحاوراتها

61- العدل

ص: 162

- 62- أصول الفضائل عند العرب اعدتهم للإسلام
- 63 - (الفصل السابع - جمال خديجة والجمال عند قومها)
- 64 -أفضل ألوان الحسان عند العرب
- 65 -استعداد العرب يحب جمال الخلقة الى معرفة جمال الخالق
- 66 و 67 وصف الجمال 68 - (الفصل الثامن ثراء خديجة والثراء عن قومها)
- 69 -قريش - استعدادها للإسلام
- 70 - قريش حبها للمجد والثروة
- 71 - قريش أسواقها مجامع العرب
- 72 -صادرات- بلاد الحجاز و وارداتها
- 73- حضارة قريش
- 74- التجارة في الجاهلية واصناف الأموال
- 75- النقود والابل في الجاهلية
- 76- الرقيق والزرع والضرع في الجاهلية
- 77- الثروة ينابيعها متحدة في كل زمان
- 79 - (الفصل التاسع - زواج خديجة الأول)
- 80 -الاشارة إلى حياة خديجة الجديدة
- 81 - (الفصل العاشر - محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) قبل نزوح خديجة)
- 82,83 عناية الله تعالى بالعرب وبعيد المطلب خاصة
- 84 -شرف عبد المطلب بالنبي «(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)

- 85- تاريخ مولد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)
- 86- خبر رضاع النبي ومرضته حليلة السعدية
- و 87- بركته عليها
- 88- وفاة أم النبي
- 89- كفالة أبي طالب للنبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)
- 90- سفر أبي طالب بالنبي الى الشام
- 92- رؤية النبي لحرب الفجار
- 93- (الفصل الحادي عشر - الحب الشريف)
- 94- الحب الشريف طبيعة النفس
- 95- محبة خديجة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ومزاياه
- 96- (الفصل الثاني عشر - تفاول هذا وقته)
- 97- معرفة العرب بالنبوة
- 98- (الفصل الثالث عشر - الخواطر في قلب خديجة)
- 99- أمانى خديجة وخواطرها في الزواج بمحمد
- 100- ضرر التقليد بالعادة
- 101- خواطر المرأة الكاملة
- 102- (الفصل الرابع عشر - الزواج)

- 103- طريقة خطبة خديجة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)
- 104 -الصداق وسنة العرب فيه
- 105 - (الفصل الخامس عشر - بيت خديجة بعد الزواج)
- 108 - (الفصل السادس عشر العمل الروحي)
- 110 ما نحن؟
- 119- بحث في العمل الروحي
- 122 - (الفصل السابع عشر بدء الوحي)
- 128 - (الفصل الثامن عشر - عظم المنة باتساع السنة)
- 130 - (الفصل التاسع عشر - الدلالة العقلية على صدق الرسالة)
- 132 - (الفصل العشرون - شرح حكمة السيدة خديجة)
- 138 - (الفصل الحادي والعشرون - الدليل التقلي على صدق محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ))
- 139 -ورقة بن نوفل - ايمانه بالدليل
- 140 -استدلاله بكتب العهد الجديد، على صدق محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)
- 141 -استدلاله، بالعهد القديم على ذلك
- 142- قول نبي اسرائيل بالنبوة
- 142 -اساس ملك اسرائيل الوحي والانبياء
- 144 -امكان الوحي ووقوعه
- 145 -خديجة - استدلالها ، على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم يعلم ورقة
- 146 - (الفصل الثاني والعشرون - الايمان والآيات و خوارق العادات)
- 147 -الايمان بالدليل

148 - ايمان خديجة لم يكن بتأثير الزوجية

150 - الاختلاف في الاستدلال - الخوارق لا تغير سنن الكون

151 - الخوارق عدم توقف صحة الدين عليها

152 - تعذر الاكتناه

153 - عناية الله بالنبى المختار

154 - (الفصل الثالث والعشرون - اعلان الدعوة واحتمال الاذى والثبات)

155 - معاندة قريش وعدم اهتدائها

156 - الجاحدون والمؤمنون

158 خلاصة الدعوة

159 - (الفصل الرابع والعشرون - ، بعد عشر سنين)

160 - الجاحدون والمؤمنون - مقابلة . وفاة خديجة

ص: 164

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجاناً. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والندور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضاً الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلا:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

